مجاهل افريقية

تعريب المعلم شاكر شقير

اللبناني

عضو عامل في المجمع العلمي الشرقي

فضل السياحة لذة وفكاهة ... ولنا بجمع في العلوم فوائد
فكأنها المرآة فيها تنظر الدنيا وانت على بساطك قاعد

طبع في بيروت بمطبعة القديس جاورجيوس سنة ١٨٨٥

القسم الاول

مقدمات اجمالية

الفصل الاول

في حالة افريقية قبل ليفنستون

كانت لفظة افريقية في الزمان الاول تطلق على قسم شمالي من القارة الجمالية . وبعد اكتشافات السياح وطوافهم حول هذا البر الفسيح صارت تحسب قارة عظيمة من قارات الكرة الارضية وهي احدى الثلاث الشاغلة الوجه الشرقي منها. مساحتها نحو ٣٥ مليون كيلومتر مربع .وكانت سابقًا متصلة باسيا بقطعة من الرمل فاصلة بين البحر المتوسط والبحر الاحمر يقال لها برزخ السويس والآن قد صار هذا البرزخ ترعة فصارت افريقية جزيرة كبيرة يحدق بها البحر المتوسط والبحر الاحمر من الشمال والشمال الغربي والاوقيانوس المحيط من الشمال الشرقي والشرق وبحر الهند من الغرب والاوقيانوس الكبير من الجنوب وطرفها الجنوبي هو المعروف براس الرجاء الصالح

وعرفت سواحل افريقية في ازمان متباينة واما داخليتها فبقيت قرونًا عديدة مجهولة لشدة حرارتها وكثرة مخاوفها والاخطار والمشقات المعترضة

دون من يتوغل فيها ومع ان اليونان والرومان كانوا يدخلون افريقية ويواصلون سواحلها وبعض قبائلها الداخلية مدة طويلة من الدهر لم يخطر ببالهم ما في داخليتها من المفاوز والصحاري الرملية والوعور والجبال والانهار ونحو ذلك مما عرفهٔ المتاخرون

فابعد رحلة عرفت من الآثار القديمة رحلة امير بحر قرطاجني تقدم على سواحل ليبيا الى ان بلغ النقطة التي زعموا انها خط السرطان . وذكر هيرودوتس رحلة فينيقية كانت تحت حماية نخو ملك مصر وان الجماعة دخلوا البحر الاحمر بترعة حفرت حديثًا وبعد ثلاث سنين من مسيرهم في البحر رجعوا الى المكان الذي رحلوا منهُ وقد مرُّوا باعمدة هرقليس . وتعجب هيرودوتس من امر حدث لهم وهو ان الشمس كانت اولاً تطلع عن يسارهم ثم راوها في رجوعهم تطلع عن يمينهم . وهذا يدل على ان هولاء الفينيقيين قطعوا خط الاستواء مرتين . وسنة ١٨٢٠ اكتشف السياح قرب راس الرجاء هيكل سفينة من خشب الارز مدفونة منذ قرون عديدة وزعموا انها سفينة فينيقية

ولا يتعجب القارئ من ذكر هيرودوتس دخولهم البحر الاحمر بترعة حديثة الحفر لان عملية دولسبس لم تكن الوحيدة في برزخ السويس فالاقدمون كثيرًا ما اجالوا افكارهم في فتح ترعة تصل بين البحر المتوسط والبحر الاحمر فعلى ما يظهر من كلام هذا المورخ ان نخو ملك مصر فتح تلك الترعة . وعلى راي ديودورس الصقلي ان دارا الاكبر شرع بهذا العمل سنة ٤٩٠ ق . م واكملهُ بطلميوس سنة ٢٧٧ للميلاد . وذكر بلينيوس ان الترعة كانت تصل الى البحيرات المرّة والدلائل كثيرة على القول بانها كانت تتصل ايضًا بالبحر الاحمر . ولما حفرت موخرًا في عهدنا هذا وجدت آثار كثيرة تدل على انها من عهد بطلميوس او كليوبطرة . ودخلتها السفن قديمًا الى القرن السادس للمسيح بعناية الامبراطور طرابانوس والامبراطور وليانوس الرومانيين . ثم طمرت مدة طويلة الى زمن الفتوح الاسلامية ففتحها عمرو بن العاص وبقيت مفتوحة الى

زمن المنصور فطمرت لسدّ طريق العصاة المصريين ولم تزل مطمورة الى هذا الزمان ففتحها المهندس دولسبس المشهور

وكان القدماء كما قلنا لا يعرفون من افريقية الا القسم الشمالي وسائر اقسامها بقيت غامضة حتى على المتاخرين . ومنذ القرن الخامس عشر اخذ السياح في التقدم على سواحلها مخاطرين بانفسهم واول من فعل ذلك البرتوغاليون فتعرّفوا السواحل وواصلوا القبائل الداخلية . وكل ما عرف في ذلك الزمان من احوال افريقية بقي على ما هو الى اوائل القرن التاسع عشر الذي نحن فيه

وزد على ما تقدم ان الاولين كانوا يعرفون احوال مياهها الداخلية اكثر من المتاخرين الى سنة ١٨٤٠ فقد صنع البرتوغاليون كرات في القرن السادس عشر وموركاتور خارطات سنة ١٥٤١ وكذلك كورونلي سنة ١٦٨٨ وعلى جميعها رسوم بحيرات في افريقية يتفجر منها النيل . وفي البندقية نشرت عدة خارطات منها باسم مارين سانودو سنة ١٣٢١ وباسم فرامورو سنة ١٤٥٧ ومرتين بيهيم سنة ١٤٩٢ ودياغو ربيبرا الاشبيلي سنة ١٥٢٩ ودابر الامستردامي سنة ١٦٧٦ وانقيل سنة ١٧٤٩ يظهر منها انه منذ عهد قديم قريب من اسفار البرتوغاليين كانوا يعرفون بعض امور مقررة عن بحيرات كبيرة في اواسط افريقية دعت العلماء المتاخرين من ابناء هذا العصر الى الاستقراءات العظيمة . وقد ذكر بطليموس ان القطر الذي فيه ينابيع النيل يقال له بلاد القمر وهو اسمه الى اليوم وذكر ايضاً ان البحيرات التي يخرج منها النيل كثيرة المستنقعات ومع ذلك كان يجهل مواقع هذه البحيرات وعددها

والرحلات التي قام بها الناس الى تلك الاقطار كثيرة منها للعرب ومنها للبرتوغاليين واول رحلة مهمة تذكر رحلة لاون الافريقي ومنها بعد ذلك رحلات كاڤانسي وبونسيت وبروي وكولسبي وذلك في القرن السابع عشر ثم رحلات كمبانيون وسنيورت وسكاو ودي مرشي وبوكوك وبرون وايزر ونوريس وبورغان وبارو ومندزو لاسردا وذلك في القرن الثامن عشر .

وليس في رحلاتهم تقارير يركن اليها . ثم كانت رحلة ادمس وصل بها الى تمبكتو سنة ١٨١٠ ورحلة منغوبرك مات بها قتيلاً وهي اول رحلة تقاريرها صحيحة عما يتعلق بنهر نيجر ثم رحلات كلابرتون ولامي ورتشرد لندر وكالبي ثم رحلة برث الشهير ورفيقهِ فوجل وهما اللذان دخلا الاقطار السودانية التي يشقها النهر المذكور

واما في ساحل افريقية الشرقي فلا يعرف الا رحلة برتوغالية من سنة ١٨٠٦ الى ١٨١٠ وصلوا بها الى مصبات زمبيز ولم تات رحلتهم بطائل . ثم كانت رحلة المرسل الانكليزي كرَبف ورفيقيهِ ارهرت وربمان فاكتشفوا اشياء مهمة في جبال قنية فيليمنجارو وحصَّلوا من تجار العرب في تلك الاقطار افادات تتعلق بالبحيرات الكبرى ادَّت السياح الى قصدها . فسنة ١٨٤٥ رحل شاب فرنسوي اسمهُ ميزان وبينما هو خارج من بغاموبو تجاه زنزيبار قاصداً قرية جلّ المهرة التي تبعد عن الساحل نحو ٢٠٠ كيلومتر دهمهُ البرابرة وعذبوهُ اشد العذاب وقتلوهُ وقد كان آملاً ان يبلغ بحيرة تشاد. وسنة ١٨٥٩ مضى ردشر الهمبرغي مع قافلة من العرب وقارب بحيرة نياصا فقتل وهو نائم

فهذا مجمل ما عرف من الرحلات الاوروبية الى الاقطار الافريقية الى الوقت الذي قام بهِ العلاَّمة ليفنستون باكتشافاتهِ الجليلة بعد ان اقام في افريقية مدة طويلة فتاهب وشرع باول رحلاتهِ سنة ١٨٤٠ . ومضى سنة ١٨٥٢ الى غرب افريقية الشمالية ووصل الى ساحل كونغو ورجع الى كيليماني على ساحل افريقية الشرقي مارًّا بوادي زمبيز فاكتشف شلالات هذا النهر وهكذا اجتاز بر افريقية من ساحل الى ساحل . امر لم يسبقهُ اليهِ احد من الاوروبيين .

فلما راى ان مساعيهُ نجحت عزم على الاستقراءات الكثيرة في الاقطار الفسيحة فكان ينجح بواسطة سمو عقلهِ ومعارفهِ الطبية . فشرع برحلتهِ الثانية الكبرى سنة ١٨٥٨ فاستقرى بها نهر شيري الذي يلتقي بزمبيز واكتشف بحيرة نياصا التي يخرج منها شيري وعرف معرفة تامة القسم الاسفل من زمبيز . وسنة ١٨٦٥

عزم على دخول القطر المجهول الواقع بين تنغانيقا ونياصا لكي يتم استقراء الاولى من هاتين البحيرتين ويتعرف احوال الاقطار التي الى غربيها وشماليها صاعدًا وراء خط الاستواء الى صقع كبير لم تكن احوالهُ معروفة ولذلك قضى السنين الاخيرة من حياتهِ في اتمام مشروعهِ المذكور فمن شهر اذار سنة ١٨٦٦ الى شهر ايار سنة ١٨٧٣ لم يكلّ ولا قعد ساعة عن تتبّع مساعيهِ فبعلو همتهِ واجتهادهِ العظيم اكتشف اكتشافات جغرافية ذات اهمية عظيمة ومهّد للسياح سبلاً عديدة وهو الذي حرّك روح التغاير في السياح بواسطة تجارة العبيد فكانت سببًا لتقدم العالم في عشرين سنة اكثر مما تقدم في ٢٠ قرنًا قبلهُ . وبسببهِ ايضًا بالغ السياح في استقصاء ينابيع النيل في جهات مختلفة حتى عُرفت معرفة تامة

الفصل الثاني

في مجمل الرحلات الاخيرة

منها رحلة سبيك وبرتون قطعا من الاوقيانوس الهندي الى بحيرة تنغانيقا فمرض برتون وبقي في قازة فمضى سبيك شمالاً بحسب تعريفات تجار العبيد المبهمة فوصل الى بحيرة اوكيريوي فما قدر ان يستقريها ومضى عازمًا ان يعود اليها ثم رجع لاحقًا بالقبطان غرنت سنة ١٨٦١ لقصد البحيرة العظيمة التي يصدر منها النيل فوصلا الى اوغندا فاحسن الامبراطور متيسا التفاتهُ اليها فاجتازا ارضهُ وركبا النيل الى غندوفورو . وسنة ١٨٦٣ لقيهما السائح صموئيل باكر فافتخر

الانكليز بسبيك قائلين انهُ كشف ينابيع النيل

واقام باكر بعد ذلك يستقري ضفاف النيل الازرق وهو يطارد الصيد على تلك الجهات ويقيّد تفاصيل جليلة عن تلك الاقطار المتسعة التي بين ارض الحبشة والنهر الابيض ومضى ايضاً جول جبرار الفرنسوي المشهور بقاتل الاسود وبينما هو سائر في طريق نيجر مرض ومات

وسنة ١٨٦٥ كانت رحلة ليفنستون لاستقراء شيري وجنوبي نياصا وكان الزُلوع (الزولوس) قبل ذلك قد منعوهُ بتعدياتهم عن هذا الاستقراء

ثم رحل دوشالبو واستقرى اقطار كونغو الواسعة واراد ان يصل الى تنغانيقا من شاطئها الغربي آتياً من خليج غينيا فلم يتوفق الى التوغل

ومضى لوسان الفرنسوي جاعلاً نقطة ترحالهِ في خرطوم قاصداً بلوغ غابون حيث خرج دوشالبو

وتقدم ايضاً في تلك الاقطار الكثيرة الاخطار جيررد رولف الالماني قاصداً تجديد مساعي برث الناجحة واختراق البلاد الى تمبكتو في خلال الصحراء ماراً ببحيرة تشاد وارض بورنو

وكان الخبر قد شاع في ذلك الزمان ان ليفنستون مات في اثناء تجولهِ فعزمت انكلترا على ارسال جماعة للتفتيش عليهِ فوردت اخبارهُ انهُ ساعٍ بنجاح واجتهاد ثم انقطع خبرهُ مدة اربع سنوات فنهضت الحمية والهمة بالشجاع العالم ستانلي ومضى للكشف عن احوال ليفنستون فلما وصل الى زنزيبار جمع قافلة وتقدم في طريقهِ في شهر نيسان سنة ١٨٧١ واخبارهُ طويلة لا محل لها هنا الآن.

وفي تلك الاثناء الى سنة ١٨٨٠ رحل جماعة اخرون مثل شوينفرث وصموئيل باكر وكامرون ونخنيغال وبرانسا وبلفون وديز وفلاتر ومانتشي ومساري وسربابنتو وغيرهم

الفصل الثالث

في انهار افريقية الكبرى

اولاً النيل

منذ اقدم الازمنة كانت مسألة فيضان النيل تهم جميع من قطنوا على ضفتيه ليعرفوا سببها وعرف ان اقدم المصريين كانوا يحاولون معرفة منبع هذا النهر العجيب فقيل ان جماعة منهم مشت في الارض نحو شهرين الى ما فوق الفنتيبة واقامت هناك . وذكر سينكا ان الامبراطور نيرون ارسل من قبله وفداً يستقرون تلك الاقطار فصعدوا النهر الى ان بلغوا غديراً عظيماً مستنقعاً لم يتيسر لهم سلوكه ولعله بحيرة النوء وعلى راي المتاخرين بلغوا بلاد نيام نيام التي يرويها بحر الغزال مع ان السياح المتاخرين منذ اكثر من عشر سنوات لم يكادوا يبلغونها

ولم نتقدم الى هناك رحلة مهمة قبل اللجنة التي ارسلها محمد علي باشا سنة ١٨٣٩ بالحاج قنصل فرنسا فلم يصادفوا نجاحاً . ثم ارسلت لجنة اخرى تحت قيادة ارنود وساباتي الفرنسويين فبلغوا من العرض الى ٤ً ٤٢ ٤٢ْ . ومن ثم طرقت الطريق التي فتحوها لكن لم يتجاوزها احد لمانع لا تستطاع ازالته الى ان كانت سنة ١٨٤٩ فطلبت الامبراطورة صوفيا النمسوية الى البابا بيوس التاسع ارسال

لجنة مبشرين فبلغوا المكان الذي قامت فيهِ من ثمَّ محلة غندوقورو

ثم سافر فودي وبعدهُ برون رولّي كل منهما بصفة قنصل سردانيا فصعدا النيل واعيتهما المشقة قبل ان تجاوزا الدرجة الرابعة وكذلك حصل لاثنين بعدهما غير ان اندريا دبونو التاجر المالطي تقدم اكثر من الجميع حتى بلغ الدرجة الثانية فوق خط الاستواء . ومع كل ذلك لم يكن النجاح على تقدم الى ان قام سبيك وبرتون وقصدا الوصول الى البحيرات الكبرى التي ينشق منها النيل آخذين من جهة اخرى فمضيا في الطريق التي يمضي بها تجار العرب من زنزيبار فبلغا بحيرة تنغانيقا وكان قد اخبر بوجودها المرسل اليسوعي البرتوغالي لويس ماريانا في القرن السابع عشر

وسمع سبيك وبرتون من تجار العرب بوجود مجموع مياه فسيح لم يكن بحرًا واقع في الجهة الشمالية ولا تعرف حدودهُ وكان برتون قد مرض فتركهُ سبيك في قازة وتوجه نحو المكان المذكور وبعد مسيره ٢٥ يومًا راى من راس هضبة مجموع ماءٍ يتجه الى الشمال وكان متسعًا جدًّا فلم يستطع دخول هذا البحر والطواف فيهِ لسوء اخلاق الاهالي فعدل عن عزمهِ اذ ذاك وبفكرهِ ان يعود ثانيةً وقد عرف انهم يسمون ذلك البحر نيانزا أو فيكتوري

فهذا الاكتشاف المهم حرّك جمعية الجغرافية في لندن وعزمت على ارجاع سبيك للوقوف على هذه البحيرة العظيمة وارسلت معهُ القبطان غرنت وامدّتهما بمال كثير . وارسلت الحكومة امرًا الى قنصل خرطوم ان يتقدم في النيل الى غندوقورو ويلقى السائحين بزاد وافر وكان المسموع ان نهرًا عظيمًا يخرج من تلك البحيرة نحو الشمال ولايكون هذا النهر الا نفس النيل فاشتهر اسم السائحين المذكورين وافتخر الانكليز باكتشاف ينبوع النيل على يدهما . غير ان هذه المسألة التي شغلت الناس منذ ٢٥٠٠ سنة لم تحلّ حلاً كافيًا لان الذي عُرف موخرًا ان للنيل اصولاً كثيرة تاتي من الجنوب والشرق والجنوب الغربي وتجتمع كلها لتاَلف مجرى النيل وكانوا كلما عرفوا واحدًا من هذه الاصول

يقولون انهُ منبع النيل والراي العام كان ان ما يسى هناك بالبحر الابيض هو الاصل الحقيقي وثبت ذلك برحلة سيك الثانية . وكان يقال ايضاً ان ما يسى بالبحر الازرق هو مصدر النيل ثم تحققوا ان هذين النهرين المسميين بالبحر الابيض والبحر الازرق يجتمعان تحت الخرطوم عند الدرجة الخامسة عشرة من العرض الشمالي وقبل ان يجتازا بلاد سنار في مجريين كثيري الصخور يرويان اكبر قسم من بلاد الحبشة وهناك ينضم اليهما انهر اخرى آتية من مملكة خوا وبلاد جمة . وذكر بعض السياح ان ذلك النهر العظيم يخرج من بحيرة يقال لها بحيرة الروع محيطها مسير عدة ايام وموقعها الى جنوبي جبال قمَّة

وبعد الرحلتين التي امر بهما محمد علي سنة ١٨٣٩ و ١٨٤٠ توجهت الافكار الى النهر العظيم الذي يشق بحيرة النوء المسماة عند العرب بحر الغزال وبعد ان فتحت الطرق في تلك الاقطار لدخول تجار الامم راى الاهالي انفسهم آلة للخدمة وغرضاً للشقاء والخسران ففات ثقتهم بالاجانب وصار يصعب جدًّا تخلل اراضيهم لمعرفة اصل النيل الغربي لكن سنة ١٨٥٦ دخل تاجر ايطالي في حدود نيام نيام واظهر بعض تفاصيل عن احوال تلك القبائل ثم مضى شوينفرت واقام ثلث سنين يفحص اقطار باغنسة الجبلية التي يخرج منها عدة جداول يصب منها في النيل ما هو الى جهة الشمال وفي بحيرة تشاد او نهر كونغو ما هو الى جهة الجنوب . وبواسطتهِ عرف كل التلاع الجنوبي لبحر الغزال

وبعد ان فحص ليفنستون اقطار بحيرة تنغانيقا والبحيرات الجنوبية حسب انهُ قد عرف ينابيع النيل الحقيقية وكان قد سمع من تجار العرب ان بين تنغانيقا والبحيرات الاخرى اتصالية وبعد ذلك اكتشف سبيك وغرنت وباكر واخيرًا ستانلي ان النيل يخرج من بحيرات عظيمة تجتمع اليها مياه الامطار الغزيرة ومياه انهار اخرى صغيرة آتية من الجبال الجنوبية والشمالية

فمن تلك البحيرات فكتوريا نيانزا شواطئها محفوفة بالعوسج والعليق تمتدُّ

وراءها غابات كثيفة من القصب ياوي اليها فرس الماء بكثرة والبعوض يكثر هناك حتى يكون كالسحاب والقبائل المجاورة لها خشنة الطباع جداً سيئة الجوار وارتفاع موقعها عن سطح البحر ١٠٩٧ متراً ومساحتها نحو ٢٤ الف كيلومتر مربع وفي ايام الحرّ تقل مياهها بالتبخر فتنقص نحو ٣٥ مليار متر مكعب وفيها قطع كبيرة من الارض على هيئة جزر وتشتد بها الانواء بسبب المد والجزر ولها مجرى تتصل به ببحيرة اخرى كبيرة اسمها موتانسيج وهي في حضيض جبل اسمه جيجارا علوه ٤٠٠٠ متر واهله بيض اغنياء وينصبّ الى ڤكتوريا نهر عنيف الجري يسمى الكسندرا عرضه ١٥٠ متراً وعمقه ٤٠ وهو يجتمع من ١٧ بحيرة صغيرة وهذه البحيرات يشقها كلها نهر يخرج من بحيرة اسمها الكسندرا نيانزا ويصب في بحيرة وندرمير

ومن البحيرات الكبرى ايضاً بحيرة كويا تنصب مياهها الى بحيرة اخرى كبيرة اسمها ألبر نيانزا. حولها جبال عالية تمتد من شاطئها الجنوبي غابات طويلة عريضة من البردي

ثانياً نيجر

كان القدماء لا يعرفون حقيقة هذا النهر وخلطوا كثيراً في الكلام عليه حتى اوضح منغو برك ولينغ وكالبي معرفة مجاريه العليا والاخوة لندر ابانوا تفاصيل كافية عن مصبه سنة ١٨٣٠ وقد هلك بسبب هذا النهر كثير من السياح لصعوبة المسلك في اقطاره. منهم سوني وبريسون وادم وريلي وكوربلي ومنغو برك واندرسون وسكوت ولينغ وكالبي هولاء ماتوا بشدة المشقات. وكلابرتون ورتشرد وجون لندر وغيرهم قتلوا قتلاً. وسنة ١٨٥٣ اقطع برث الصحراء وبلاد السودان ووصل الى النيجر ومن هناك اخترق البلاد وبلغ تمبكتو. ونجا

نحوهُ سياح اخرون فلم يتجاوزوا سيغو لان ملكها منع توغل الاجانب في اكتشاف البلاد خوفًا من نفوذهم التجاري

ويجتمع النيجر بنهري تمليس وفليقة ومن ثم يسمى ذيولي با فيصير مهمًّا بالنسبة الى البلاد التي يشقها ولاسيما في تجارة فرنسا لانهُ يناوح نهر سنغال الذي تجري فيهِ السفن مسافة الف كيلومتر ويحاذي مجراه مجرى النيجر الاعلى على مسافة ٤٠٠ كيلومتر وتجري السفن في النيجر مسافة ٢٠٠٠ كيلومتر وبهذا تسهل الاتصالية بين سنغال والسودان والصحراء . والاقطار التي يشقها النيجر خصبة متنوعة الحاصلات . وعرضهُ في قسمهِ الاعلى نحو ٦٠٠ متر وسيرهُ غير عنيف في الصيف وعلى ضفتيهِ مفاوز رملية ويمكن سير السفن التجارية فيهِ هناك . وبعد ان يجتاز بلاد سيغو يشق سنسنديغ ثم يدخل مسينا وتقل تعرجاتهُ ويجري في ارض مستسهلة ثم ينعطف الى الشمال الشرقي مارًّا بحدود الصحراء ويتجه الى الجنوب الشرقي قبل ان يبلغ جاجو بقليل . وجاجو قصبة قديمة لمملكة سُرحاي وبعد ذلك يجري في بلاد خصبة كثيرة القبائل وبعد مسافة بعيدة يصل الى قيافينصب اليهِ نهر ريما ويكون واسطة الاتصالية بينهُ وبين بحيرة تشاد بواسطة مدينة قانو . وبعد ذلك يصعب ركوبهِ لعنف مجراه ولسبب شلالات بوصه . ومن هناك تنصب اليهِ عدة جداول . وبعد ان يجتاز بين جبال قونو وولم ينصب اليهِ نهر بنوي . وبعد ذلك يمرّ بمضايق اغبغبي وينعطف قليلاً نحو الجنوب الغربي ويصب في الاتلنتيك بعصبات عديدة تتالف منها ارض كذلتا النيل . وطول مجراه عمومًا ٢٥٠٠ كيلومتر

ثالثًا كونغو

ويسمى زيري ايضًا وهو نهر عظيم اول من قصد استقراءهُ البرتوغاليون بعد ان استولوا على المكان الذي ينصب منهُ الى البحر غير ان عنف جريهِ منعهم عن التقدم فيهِ . ثم تقدم بعض السياح الى وسطهِ وكشف بعضهم بحيرة تمدهُ في الداخلية . ثم دخل الايطاليون في الاقطار الداخلية التي يجري فيها وعرفوا انهُ يخرج من بحيرة اسمها زَيري وهي بحيرة مويرو التي اكتشفها ليفنستون في رحلتهِ الثانية . ومن هناك ينشعب منهُ فرع الى الجنوب ويدخل في تلاع زمبيز ثم استقراهُ ستانلي استقراء حسنًا وعرف اقطارهُ

وهو نهر كبير فسيح عميق يسميهِ الاهالي باسماء تدل على شدة هولهِ عندهم كالمبتلع والمغرّق ونحو ذلك ويتدفق منهُ في الاتلنتيك كل ثانية ٥٦ الف متر مكعب . وتنصب اليهِ عدة انهر

رابعًا زمبيز

هذا النهر يصب في ترعة موزمبيق بين مادكسكر والبر الافريقي ومياههُ عند المصب عميقة وتكثر المستنقعات على ضفتيهِ فتولّد حميات وحشرات مهلكة وكان معروفًا منهُ القسم الذي بين شاطئ البحر وقرية تيتي وهذا القسم كان يركبهُ تجار العبيد واما القسم الباقي فاكتشفهُ ليفنستون وعرف بهِ شلالات فكتوريا العظيمة وتنصب اليهِ عدة انهر صغيرة ويفيض مرتين في السنة ويجري قسم منهُ في سهل طولهُ اكثر من ٣٠٠ فرسخ وقسم في ارض مستوعرة يصعب سلوكهُ فيها

وعرضه في بقعة منه قبل الشلالات الف متر ثم يهوي في هوة عميقة فيُرى بها ضباب كثيف ويتصاعد من هناك خمسة اعمدة من البخار صاعدة في السماء وتنزل على الارض كالمطر وهو منظر غريب وبعد ذلك يجري في ارض خصبها لايقدّر. وطول مجراه ١٤٤٩ كيلومتر وكل ذلك القطر كثير الحيوانات والنبات والادغال فهناك الفيل والجاموس والكركدن والغزلان بكثرة والابنوس الملتف ونحوهُ وفحم الحجر في طبقة فسيحة من الارض ونسبتهُ في الفائدة الى اواسط افريقية كنسبة الطونة الى اوروبا والامازون الى اميركا الجنوبية

الفصل الرابع

بوادي افريقية

منها البادية الرملية العظيمة المعروفة بالصحراء ممتدة من الساحل الغربي من افريقية الى الساحل الشرقي من آسيا اي من الاتلنتيك الى بحر يابان وتليها في خطها بادية ليبيا وبادية العرب وبوادي فارس وبلوخستان وبخارى ثم بادية قوبي الكبرى . وصحراء افريقية طولها ٤٨٠٠ كيلومتر وعرضها ٢٤٠٠ ومساحة سطحها قريب من مساحة سطح اوربا كلها. ويقال انها كانت في الزمان القديم بحرًا فارتفع قعرهُ باندفاعات طبيعية وعلا اوسطه الى ارتفاع نحو ٤٠٠ متر فوق اقطار جبال الاطلس وينخفض بالتدريج . وتخترقها كثبان كثيرة من كل وجه وفيها ايضًا جبال مستوعرة وصخور عظيمة وقد نثرت فيها مع ذلك بقع قليلة متفرقة يسمونها الواحات فيهـا شيء من الماء والخضرة . ويسير

الانسان في رمالها الكثيفة وصخورها الصلبة اياماً طويلة لا يرى حيواناً ولا نباتاً ولا طائراً واشعة الشمس تفيض عليها كلهب الاتاتين فان ثلثة ارباع سطحها في المنطقة الحارّة وتبلغ درجة الحرارة في رمالها الى الدرجة ٧٠ من الميزان المعروف بالسنتيكراد. وتهب فيها الرياح المعروفة بالسموم فتنسف رمالها وتنقلها كالهضاب من مكان الى اخر وهي تموج وتدور كتيارات البحار وعند اقتراب العاصف من القافلة تنام الابل على الارض لئلا تحملها الريح والانسان يغطي وجهه وينام في ظل بعيره او يهرب الى جب محفور هناك اذا اتفق له لكن النجاة نادرة جداً وقد هلكت قوافل عديدة من حرارة الرياح وتراكم الرمال عليها واحياناً تكشف عنهم الرمال بريح اخرى فتظهر بقاياهم الدالة على نكبتهم. وكثيراً ما يخرق الغبار الخياشيم والرئة فيوقف عملهما والريح الحارّة تحمل دقائق كبريتية تفسد البنية ولشدة حرارة هذه الريح وجفافها تمتص ماء النبات الذي تصادفه وتجفف الآبار التي فيها شيء من الماء والقرب المملوءة ماء المعلقة في الرحال فيتلف بها الحيوان ويذبل النبات وقد تاتي الاعصار بالرمال كاساطين ضخمة قائمة في الهواء تدور على قواعدها فلو صادفت عسكراً التفت عليه كالحية واهلكته عن اخره. فالصحراء بالحقيقة اوقيانوس من الرمال متموج وذو انواء شديدة هائلة طالما قاست مصر اخطارها الشديدة وليس لها حاجز يمنع تقدم الرمل في اقطارها الا النيل

وقد توجد في الصحراء آبار قليلة متفرقة ما دام الماء فيها ترى منازل القاطنين محدقة بها وطريق القافلة عليها فاذا نضب الماء انتقل الاهالي الى مكان آخر وغيرت القوافل طريقها لئلا تهلك عطشاً. ومع ذلك تسقط الامطار في ايام معلومة فتحيي نباتات الواحات وتحيا بها الماشية. والامطار تسقط كالانهار وقد تستمر شهراً كسيول متدفقة. وكثيراً ما تهلك الناس والبهائم بسيول الجبال. فاذا طلعت الشمس تكون الرمال قد امتصت اكثر المياه والشمس تبخر الباقي وتكون المياه الممتصة بالرمال في جوف الارض على اعماق مختلفة

كبحيرات متسعة

ومن بوادي افريقية ايضاً صحراء ليبيا تمتد من خلف جبال طو الى وادي النيل وقد ابتلعت رمالها ابنية كثيرة قديمة في الواحات التي على جانبيها . وقد حاول السياح اجتياز هذه الصحراء منذ خمسين سنة فلم يقدروا حتى اقدم عليها جيرهرد رولف فخرج من اسيوط سنة ١٨٧٤ بامدادات من خديوي مصر وقاسى اشد المشقات حتى وصل الى واحة يقال لها الداخلة فاراد ان يتقدم منها الى الواحة القفرة فلم يقدر ان يتغلب على قوى الطبيعة فمشى ستة ايام في رمال متموجة متخلخلة وقابل كثباناً ارتفاعها ٤٠٠ قدم فتوقف . وسنة ١٨٧٩ ركب طريقاً آخر فخرج من واحة جالو الى الجنوب الشرقي من ولاية طرابلس وبعد تسعة ايام بلغ الواحة القفرة المذكورة

ثم وصل غيرهُ الى واحة سيوا فلم يقدر ان يتجاوزها فالواحات التي بلغ اليها السياح هي الخارجة والداخلة وفرافرة وسيوا وعجزوا عما وراءها وقد ظن الجغرافيون انهُ يمكن بلوغ اواسط صحراء ليبيا من جهة السودان الجنوبية

ومنها بادية قلعة حاري الى جنوبي بادية ليبيا تبعد عنها خمسين درجة وهي تمتد من الاتلنتيك الى الدرجة ٣٠ من الطول الشرقي ومن نهر اورنج الى بحيرة نجامي ليس فيها مجرى ماء والينابيع نادرة جداً لكن النبات فيها كثير واهلها عديدون وفيها ادغال كثيفة من الشجر وهي سهل فسيح مستوٍ يكثر فيهِ بقر الوحش والبقع الرملية فيها كثيرة متسعة الجوانب واذا وقع المطر استقر الماء عدة اشهر في مجاري انهر قديمة عميقة لاتزال جافة قبل المطر ولا تجري بهِ لكن قد تمضي سنة بعد سنة ولا يقع فيها مطر الاَّ ما ندر جداً ويكون الهواء فيها جافاً جداً حتى لو بقي الحديد المصقول في العراء اشهراً لا يعلوهُ الصدا ويذبل ورق الشجر وسائر النبات ويهلك كثير من الحيوانات الاهلية وتهرب الوحشية الى اقطار اخرى الاَّ ما كان من بقر الوحش يصبر على الماء اياماً . و ينتقل القاطنون هناك الى الاقطار الشمالية

الفصل الخامس

بلاد السودان

هذه البلاد عبارة عن القطر الفسيح الواقع بين الصحراء وسنغمبيا وسلسلتي جبال قونغ وقونو ومجاهل اواسط افريقية ودارفور وما على خط الاستواء من بلاد مصر. وقد دعاهُ لاون الافريقي نغريسيا اي بلاد العبيد اي السود. وكان برث اول من اقتحم تلك الاقطار الخطرة فتشجع بعدهُ بعض السياح فمنهم من هلك ومنهم من قاسى اشد العذابات مقتحمين حتى قلب تلك البلاد فافادوا العلم فوائد جليلة بشانها فعرفوا ما فيها من الغنى والخصب وان اهلها ليسوا قبائل متوحشة كما كان يُظن بل اهل ممالك واسعة الاطراف عندهم مبادىء من التمدن والسياسة ولهم تاريخ وآداب وحضارة تقربهم من بعض شعوب اوروبا وقد اوضح نختيغال وماتشي ومسَّاري ولنس اموراً كثيرة مما يتعلق ببورنو وباجرمي وودَّاي ودارفور

وكان الشيخ عمر صاحب بورنو قد احسن الالتفات الى سياح المانيا حين دخلوا بلادهُ فاوفد اليهِ الملك غليوم امبراطور بروسيا الدكتور نختيغال بهدايا نفيسة شكراً لهُ على احسانهِ فاكرم الشيخ عمر وفادتهُ واعانهُ في جوب الاقطار المجاورة في مدة خمس سنوات متتابعة فاتصل الى وداي حيث قُتل فوجل وبورمان قبلهُ وشقَّ في بلاد دارفور وكانت ابوابها مغلقة عن اهل اوروبا

واقام نخنيغال مدة في قوقا قاعدة بورنو فقرر عنها تقريرات مفيدة فهي على ما افاد واقعة على مقربة من بحيرة تشاد في وسط سهل ليس خصبًا طبعًا غير ان الاهالي جعلوا فيه بساتين حسنة حول بيوتهم وعددهم كان يبلغ ستين الفًا على عهده وعندهم نشاط في الصناعة والاشتغال في العلوم واتصالاتهم التجارية كثيرة في الاقطار . وكان ملك وداي قد غزا هذه المدينة وخرّبها فاعيد بناؤها منذ نيف وثلاثين سنة

ومن هناك رحل الى كانم قاعدة مملكة بورنو الاصلية موقعها على الشاطئ المقابل من بحيرة تشاد وبعد ما رجع الى قوقا سافر الى باجرمي وهي مملكة الى جنوبي تشاد شرقيها وداي وهي من لواحقها وكانت الحرب بينها منذ عدة سنوات وجنوبيها بلاد اهلها وثنيون واما اهل باجرمي فمسلمون والمملكة حديثة النشأة اي منذ نحو ٢٥٠ سنة . وبعد ذلك سافر الى وداي مصحوبًا بوصية من الشيخ عمر فاقام بها تسعة اشهر وهذه البلاد مساحتها كربع فرنسا شماليها بلاد التبوع وغربيها باجرمي وبينها وبين دارفور بقعة يسكنها القبائل العصاة . واهلها لا يتجاوزون المليون وهم عرب رعاة ومنهم من سلالة التبّوع

واما دارفور فلم يعرفها قبل نخنيغال من الاوروبيين الا جورج برون سنة ١٧٩٣ والاقطار الاخرى كانت مجهولة فبرحلة نخنيغال عرفت اماكن كثيرة بين تشاد ودارفور واتصل الى الغرب الاقصى من ارض السودان المصرية . وعرف احوال تشاد ايضًا وعرف انهُ كان ينشقّ منها نهر اسمهُ بحر الرجال ويصب في بحيرة اخرى على مسافة نحو سنة كيلومترات الى الشمال الشرقي في بلاد بودلى واما الآن فلم يعد هذا النهر موجودًا وكذلك بحيرة بودلى . واكتشف ايضًا عدة بحيرات صغيرة على حدود باجرمي ووداي فيظن انها بقايا بحر قديم

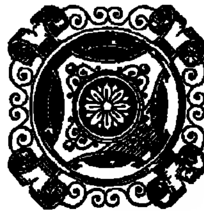
ولما رحل ماتشي ومساري قطعا افريقية كلها في سنة وخمسة اشهر ودخلا دارفور عن طريق مصر العليا وعزما على دخول وداي ورعاها بحمايتهِ السلطان

علي الى حدود بورنو فلم يقدرا ان يدخلاها لما كان فيها من الحروب الاهلية

فمضيا الى مملكة حوصة فوجداها نامية عامرة بالحضارة واهلها اهل نشاط وحذق في الاعمال وقاعدتها مدينة قانو اهلها خمسون الفًا وازقتها مستقيمة وابنيتها حسنة وفيها مدارس وتجارة وصناعة مختلفة . والدين فيها الاسلام والسلام فيها والانس والاحسان الى الغريب في درجة ممتازة عن سائر افريقية

ولما رحل لنتس قصد دخول تمبكتو عن طريق الصحراء فخرج من مراكش بصفة طبيب عثماني وجاب الصحراء بسلام ودخل تمبكتو واقام فيها مدة وعاد عن طريق سنغال وقرر عن نجاح تمبكتو من عهد برث تقريرًا حسنًا فوجد ان اهلها زاد عددهم من ١٢ الى ٢٠ الفًا وصار فيها مدارس ومكاتب عمومية وصارت حاضرة تلك الاقطار المحدقة بها من جهة الدين والعلم والتجارة

وبالاجمال فبلاد السودان كثيرة اسباب النجاح لكن الخشونة غالبة فيها والعلم ليس له اثر جلي والاستعباد فيها يحط مقام الانسانية ومركزها بين الصحراء والقبائل المتوحشة في اواسط افريقية وعلى حدودها يبطئ بارتقائها في سلم الآداب والراحة·



الفصل السادس

افريقية الجنوبية

منذ اوائل القرن السادس عشر استوطن البرتوغاليون ساحلي افريقية الجنوبية واستمرت تلك البلاد بايديهم نحو ثلثمائة سنة وبالاستقراءات الحديثة عرفت تلك الاقطار معرفة حقيقية . فكل ما هو الى الجنوب من خط الاستواء كان يظن قبلاً انهُ لا يستوطن لقلة ربعهِ واما الآن فعرف ان خصبهُ عجيب الا فيما ندر وفيهِ انهار كبيرة تشق سهولهُ وتروي اغوارهُ والنبات هناك في اعظم نمو على اختلاف انواعهِ وفيهِ من الطيور والوحوش ما لا يقدَّر من اصغرها الى اكبرها والمعادن ايضًا غنية ولا سيما فحم الحجر فانهُ على كثرتهِ سهل الاستخراج واهم معادنهِ الذهب والالماس وطبيعة هذا القطر من جهة السكان والحيوانات مخالفة لطبيعة اوروبا . فالغنم مثلاً ليس لهُ صوف بل وبر واما الناس فشعرهم صوفي محض والرجال يرسلون شعرهم والنساء يجززنهُ وهنَّ يتعاطين الفلاحة والزراعة والرجال يبقون في البيوت يغزلون وينسجون ويحلبون الماشية وهلمَّ جرًّا . واذا تزوج الرجل يدفع لحميهِ مهرًا والمرأة لا يطلب منها شيء . واهل اوروبا يزعم بعضهم ان الانسان متأصّل من القرد واما اولئك فيقولون ان النفس تنتقل بعد الموت الى القرد واهل اوروبا يحسبون اولئك العبيد خشنين واما هم فيحسبون الاوروبيين متوحشين

والشائع ان عقول اولئك صغيرة مع انهم حقيقة اذكى من سفلة الاوروبيين واللغات عندهم جميلة لطيفة الذوق بخلاف ما يقال عنهم

وكان الانكليز من جهة الجنوب والبرتوغاليون من جهة الغرب والشرق يكتمون حقيقة احوال تلك الاقطار الى ان دخلها ليفنستون فحرّك نفوس السياح لاستقرائها وبذلك تمزّق ذلك الحجاب القديم وبعد ذلك ذهبت لجن خاصة فاقامت على السواحل الغربية املاً ان تتصل الى الشرقية باجتياز اودية زمبيز العليا غير انهم لم يصادفوا نجاحًا لاسباب مختلفة . ثم رحل سياح متفرقون واقاموا في جهات مختلفة من القطر الشرقي وتقدموا باكتشافاتهم من لمبوبو الى زمبيز واشهر الرحلات التي استعلمت بها تلك المجاهل رحلة سر بابنتو البرتوغالي رحل من بنغالا في تشرين الثاني سنة ١٨٧٧ ومعهُ اثنان اخران فاخذوا في طريق اقرب الى الجنوب من التي سار بها كامرون قبلهم ومروا بارض يقال لها كويلنجة اهلها في غاية الخشونة حتى ان المرأة عندهم تباع بقنينتين من العرَق واربع اذرع من الثياب ولما بلغوا نجد كوكندة انفصل سر بابنتو عن رفيقيهِ فذهبا لاستقراء الانهر التي تجري الى الشمال وتصب في زَيري فاتيا بفوائد جمة . واما هو فجمع رهطًا ومضى بهِ لدخول الاراضي التي تصعب فيها سلامة البيض فلما تقدم كان الناس يستنكرون امرهُ ويظنون انهُ مقدم طليعة جيش آتٍ لاكتساح البلاد ففرَّ منهُ الذين استصحبهم وقد صار عددهم نحو اربعين فقضى اربعة اشهر في العذاب والمشقات الشديدة بين الاخطار ومع ذلك لم يضعف عزمهُ وجال في اقطار كانت بيد البرتوغاليين وهي حتى ذلك الوقت غير معروفة جيدًا ولم تؤثر في تمدنها مواصلات تجار العبيد فبقي اهلها على خشونتهم العظيمة

ولما وصل سر بابنتو الى نجد كجلة وجد تجارة العبيد فيها في غاية الرواج وكان يجتهد في تخليص جماعات كثيرة من العبيد الارقاء . وتجاوز تلك البقعة الى ان انتهى الى بلاد الامبولة وهناك امة من البرابرة يقال لهم المكمكو

يُعتبرون ادنى امم افريقية الجنوبية يعيشون قبائل بلا رؤساء احرارًا كالوحوش في البلاد التي بين نهري كوبنجو وكواندو ودابهم الانتقال لاينامون ليلتين في محلة واحدة وياكلون اصول النباتات ولحم الحيوانات بلا ملح ومن العجيب انهم من سلالة بيضاء نظير البيض الذين رآهم ستانلي في جمبا راجارا على ضفة موتانسيج . وتقدم سربابنتو من هناك الى ان بلغ قرية اشتد بهِ الجوع عندها وبرفاقهِ ايضًا فلم يمكنهم تحصيل الطعام الا بنهب القرية ووصل بعدها الى بلاد لوبناس فاحسن رئيسها الالتفات اليهِ وارسل منها قافلة الى بنغالا غير ان السودان بعد ذلك وجدوا انهُ سبب لتلف تجارتهم فاوغروا عليهِ صدر الحاكم واغروا اتباعهُ بالفرار من خدمتهِ ومنعوا عنهُ الطعام وحاولوا قتلهُ مرارًا واخيرًا نهب اتباعهُ ذخيرته ليلاً وفرّوا الا ان اوراقهُ بقيت محفوظة . وعلم بعد ذلك ان رجلاً انكليزيًا أُسر بامر الملك لابوصى في موضع يبعد ٦٠٠ كيلومتر فمضى الى هناك وتداخل مع الملك واستحصل منهُ بعد اطلاق الاسير قوارب ليركب نهر زمبيز وعرف كل ما يتعلق بالقسم الاعلى من ذلك النهر العظيم والانهر التي تتصل بهِ وفحص احوال البلاد ومحاصيلها واخلاق اهلها وما يتعلق بذلك فاخبار رحلتهِ اصدق الاخبار من هذا القبيل

ومن الاماكن المشهورة في جنوب افريقية صقع استعمرهُ الانكليز وسمي ترنسوال اشتهر قديمًا بان فيهِ معادن ذهبية وافرة المحصول فتوجهت اليهِ الخواطر وقصدهُ السياح من كل البلاد . ففي سنة ١٨٦٧ رحل كارل موك وطاف الاقطار الواقعة الى جنوبي لموبو المعروف بنهر التماسيح فوجد آثار اشغال قديمة ظنها آثار استخراج الذهب من تلك المعادن ووجد قرب تلك المناجم خربات ابنية ضخمة قديمة العهد جدًا فظن البعض انها من عهد سليمان وان هناك معادن اوفير الكثيرة الذهب وذهب اخرون انها من بقايا امة في اول وصول البشر الى تلك الاقطار . فظهر الآن انها آثار قبائل من السود استولى عليها البرتوغاليون في القرن السادس عشر . ولما شاع امرها

باخبار كارل موك قصدها الناس وانشئت هناك مدينتان سميتا ليدنبرج ومرابا فعمرتا في مدة قصيرة وانتشر الاجانب الى مسافة بعيدة منها

وسنة ١٨٦٥ شاع خبر نظير ما تقدم فتهافت الناس الى بلاد يقال لها غريكلند بين جمهورية اورنج والجنوب الشرقي من بادية قلعة حاري . وهذه المقاطعة على ضفة نهر اورنج في مساحة ١٢٨٠ مترًا وهي قليلة الماء جدًّا وفي السنة المذكورة كان عدد اهلها ٣٥ الفًا فبعد ان شاع الخبر بوجود الالماس فيها تضاعف عدد سكانها في بضعة اشهر واخذ الناس ينبشون الارض من كل وجه فوجدوا بعض اشياء دعت الى تزايد اجتماع الناس اليها

ولم يكن ما حدث امرًا جديدًا ففي ايام الحكومة الهولندية سنة ١٧٥٠ وجدت خارطة مرسوم عليها الاماكن التي فيها الالماس فحفرت الارض كثيرًا وحدثت اسباب تنوسيت بها تلك الاعمال الى ان جددت في العهد المتاخر المذكور . وقد عرف ان الاهلين كانوا منذ مدة طويلة يستعملون قطع الالماس للثقب لا للتحلي بها . فقيل كانوا يخرقون بها الارحية

وسنة ١٨٦٧ دخل احد التجار ارضًا يعلمها رجل بوبري اسمهُ يعقوب فراى الاولاد يلعبون بحصىً شفافة لامعة ومرَّ من هناك رجل يصطاد النعام فاتفق هو والتاجر على ان يمتحنا هذه الحصى لعلها الماسية فحزّوا بها لوحًا من الزجاج وساموها فاخذ احدهم واحدة منها لكي يبيعها ويقسم ثمنها بين الرجل البوبري ورفيقهِ فبلغ ثمنها ١٢٥٠٠ فرنك . فشاع الخبر بسرعة البرق وكادت الفتنة تضطرم في المقاطعة المذكورة واتفق ذلك في الوقت الذي فيهِ انخفضت اسعارٌ الصوف وحدث وباء اتلف البهائم

ثم وجد الاوروبيون قطعًا اخر الماسية واتى الكفرة ايضًا بقطع كانت عندهم من عهد طويل وحينئذٍ وجد الحجر الشهير باسم كوكب افريقية الجنوبية اشتري اولاً من احد الكفرة بعشرة الاف فرنك وبيع بثلثمائة الف فرنك ثم بلغ ثمنهُ ٨٥٠ الف فرنك فاشتراه اللورد ددلي وبقي بيدهِ

وكان يظن ان مصدر الالماس النهران اللذان يصبان في نهر اورنج ونهر وال ثم علموا ان بقعة في قلب البلاد فيها كميات وافرة فروي عن خبرها ما ياتي

كان رجل فرنسوي الاصل في بقعة من الارض يعملها قانعاً بما يحصل لهُ من محصولها فاتفق يوماً انهُ راى جماعة عليهم هيئة الجفاء قد اقتحموا ارضهُ اقتحاماً مريباً ولم يكن لهُ اطلاع على ما جرى من اكتشاف الالماس في النهر كما مرَّ فخاف منهم لانهُ ظن ان قصدهم اكتساح ارضهِ وطردهُ منها فجمع كل ما كان لهُ من الخفيف والثقيل في عجلة وفرَّ في جوف الليل وهو يندب سوء حظهِ وبعد قليل اهتدوا الى مكانهِ واتوا يطلبون ابتياع ارضهِ فلشدة خوفهِ لم يشأ ان يقابلهم حتى اقنعوهُ بالبرهان ان مرادهم اخذ الارض بمبلغ يرضيهِ وعرضوا عليهِ ١٢٥ الف فرنك ذهباً فاطمأن قلبهُ واجابهم الى طلبهم فقسموا الارض اقساماً مربعة وصاروا يحفرون فيخرج لهم الالماس مع التراب وعُدّل المحصول السنوي باكثر من ٢٣٧ مليون فرنك لكن كانت الصعوبة شديدة في الاقامة بتلك الاراضي القفرة الخالية من الماء والنبات فكان الذي عندهُ بئر في احدى جهاتها يبيع الماء بثقلهِ فضة تقريباً وكان يلزم استجلاب الحطب من اماكن بعيدة جدًّا حتى ادخلت آلة بخارية سنة ١٨٧٥ وكان طن فحم الحجر يكلف من انكلترا الى غريكلند نحو ٢٠٠٠ فرنك والهواء هناك شديد التغيُّر فالليل في اشد البرودة والنهار شديد الحرارة والعواصف لا تطاق لعنفها والرعد والبرق يكونان هائلين جدًّا وكهربائية الجوّ في غاية السرعة والكثرة حتى لو مرّت اسنان المشط في شعر الراس تولدت الكهربائية وتاتي الرياح الحارة بغبار كثيف كالضباب المنتشر فيحرق الاعين والخياشيم فلا يستطيع الاقامة هناك الاَّ الجلود الذي يساعدهُ التوفيق ولذلك صار من الندور استخراج الالماس . ثم عُقدت شركات عظيمة واتخذت وسائل مختلفة لتسهيل العمل فخففت عنها المشقة من جهة لكن خانتها الفعلة من اخرى فانهم كانوا يسرقون ما يستطيعون رغمًا عن التشديد في المحافظة

والصرامة في عقاب من يشعرون بسرقته فقيل ان معدل ما كان يُسرَق يوميًّا من الالماس يبلغ ٢٥ في المئة

ومما يذكر في ما تجاوز غريكلند الى الجنوب تربية النعام وذلك في مواضع على تخوم سرية يقال لها الجوف جدبة لكن لا رمل فيها واقعة الى الجنوب من نهر اورنج وطريقة التربية ان توخذ الانثى مع رئالها . تباع باكثر من مئة فرنك . واذا لم يجد المشتري انثى تستخدم لنقف البيض طريقة صناعية كما يعملون مثلاً في بلاد مصر ببيض الدجاج . وتوضع الرئال اي الفراخ في حظيرة مسيجة فاذا صار عمرها ثلاث سنوات ياخذون من ريشها ما يوافق للتجارة فيكون محصول الريش السنوي من ١٠٠ الى ١٥٠ فرنكًا عن كل فرد منها وقد اتسعت هذه التجارة جدًّا حتى قيل ان بعض البيوت التجارية تصدر كل شهر عشرة آلاف كيلو من الريش

واهل تلك الاقطار العجيبة صنفان متناقضان احدهما آخذ في مراقي التمدن ويقال لهم البويرة والآخر في اقصى درجات التوحش وهم البوشجمان اي انسان الغابات لانهم يعيشون كالوحوش في الادغال والغياض

فاما البويرة فهم من سلالة المهاجرين الهولنديين قديمًا حين كانت ولاية الراس من املاكهم فلما غلبهم عليها الانكليز انفوا من البقاء تحت سيادتهم فهجروا بلادهم وانشأوا مستعمرات ناتال واورنج وترنسوال . وانضم اليهم مهاجرون فرنسويون طردوا من بلادهم على اثر موتمر نَنت فتآلفوا جميعًا وتناسلوا وخرجت منهم اجيال شداد البنية كبار الاجسام ولم يبقَ عندهم من الدين الا اثر قليل فيقضون ايامهم في الصيد على الخيل ويرعون المواشي في مراعٍ خصبة متسعة لا ينعهم منها الوطنيون وصار من عادتهم ان يجتمعوا في الكنيسة مرة في السنة وهذا الاجتماع ياتيه الناس من كل الاقطار واطراف البلاد ويستمر اسبوعًا . ومن عادة البويرة ان يجمعوا الذهب في منازلهم ولا يشتغلون به ويتوارثونه من اجيال قديمة فقد يكون عند الواحد مبالغ جسيمة يكنزها في اماكن لا يعرفها غيرهم

ولهم في الحرب قوة وجلَد وحسن تدبير وكثيرًا ما ضايقوا الانكليز في حربهم الاخيرة معهم

واما سكان الغابات فهم نموذج الانسان في اول اجيالهِ المتوحشة فانهم في ادنى درجة من سلّم الامم ويحسبون اذية على القبائل المجاورة لهم فلم يزل الناس يطردونهم من قطر الى آخر حتى استقروا في ناحية قاحلة يباب لا ينبت فيها الا قليل من العوسج . وهم صغار القامات نحاف الابدان جدًّا هيئتهم وحشية اقرب الى القرود الكبار مما الى الانسان . لا لباس لهم الاَّ ازار للبعض من جلد الحيوانات يستر عورتهم وليس لهم نظام بشري ولا صناعة ولا زراعة ولا مواشي يعيشون من الصيد والسرقة وقد يقضون اياما طويلة في المجاعة فيغزون جيرانهم تحت الاخطار ليحصلوا ما يسدّون بهِ الرمق . والقبائل القريبة منهم يعاملونهم معاملة وحوش مضرة فيصطادونهم صيدًا ويقتلونهم بلا سبب ولا مبالاة وكثيرًا ما يستعبد البويرة من يحصل بيدهم منهم لان لهم مهارة في وجدان الحيوانات الاهلية اذا ضلّت . وطريقة اسرهم انهم يرصدونهم ويحاطون بمنازلهم وهي أكواخ حقيرة جدًّا ويطلقون البنادق فيخاف المساكين لان صوت البارود يرعبهم جدًّا فيبقون في اماكنهم لا يستطيعون الفرار فيقبضون عليهم ويلاطفونهم اولاً ويعطونهم زادًا كثيرًا مختلفًا فيغترون ويمضون معهم الى الحقول وهناك يستخدمونهم لعمل الارض بالقوت الضروري

وليس لهولاء الوحوش عيال معروفة فلا يعرف الولد الاَّ امهُ حتى اذا ترعرع تركها وتركته والذي يشيخ منهم ويعجز لا يلتفت اليهِ احد فيموت جوعًا او تفترسه الضواري

ولسبب شقاء البدواة والجوع ونحو ذلك يكادون ينقرضون في الجهة الشرقية من بادية قلعة حاري واما الذين الى غربيها فيستخدمون لشدة مهارتهم في سلوك الغياض والادغال فيعيشون عيشة حسنة مع من يجاورهم

الفصل السابع

في الافريقيين عموماً

ان الاختلاف الذي بين القبائل الافريقية وعاداتهم ولغاتهم ليس اقل مما بين محاصيل اراضيها المتنوعة . ويقسمون عموماً الى قسمين سود وسمر وقبائل السمر اكثر بكثير من قبائل السود الاصليين ولا يزالون يزدادون عليهم ويستغرقون معظمهم وقواهم العقلية اعظم من قوى السود . والذين في غرب افريقية من السود قد خملوا جدًا لافراطهم بالمسكرات . والهيئة الاجتماعية عند السمر حسنة النظام حتى ان بعض شعوب اوروبا يحسبون دون بعضهم

وفي افريقية كل انواع الحكومات من جمهورية ومطلقة ومشيخة ومجلسية حتى لن عند بعضهم رتباً سياسية وخاصة مبنية على نظامات اصولية حسنة المبادئ لكن هذا محصور في قسم صغير لان الافريقيين اجمالاً كالارقاء لاهل السيادة

والمرأة عندهم منحطة المقام جدًا تستخدم للاعمال والاحمال وتباع كانها من اصناف التجارة ولا تعتبر زوجة حقيقية وقيمتها بكثرة اولادها . والتي لا تستخدم في الاعمال الشاقة يكون مقامها كمقام البهيمة التي يرام لحمها ولبنها وهذا يحسب اكراماً لها كما نكرم البهيمة بحسن المعاملة

لكن في بعض الاقطار السودانية مثلاً وما ناوحها تكون للمرأة سيادة خاصة

خلافاً للشعوب الاخرى حتى ان الحكم يكون بيدها في بعض المالك فمملكة روندة مثلاً بين موتانسيج وفكتوريا نيانزا تحكمها امراة قائمة بنجاحها وسلامها

والنظامات العسكرية في افريقية مما يستحق الذكر مع قطع النظر عن القبائل العربية والحبشية المعروفة احوالها فيقضي العجب من يقف على عسكرية بعض ممالك السودان ولا سيما مملكة اوجندة شمالي فكتوريا فقد ذكر ستانلي بتأكيد ان عسكر الامبراطور منيسا كان في بعض حروبه مولفاً من ١٥٠ الف مقاتل و ١٠٠ الف بين نساء واولاد وعبيد والمعسكر كان مشتملاً على ثلاثين الف مخيّم كلها بنيت بناء حسناً في ساعات قليلة يبيت فيها ٣٠٠ الف نفس

وبعض امم افريقية تستحق الذكر الخاص لغرابة احوالها . فالقبائل القاطنين على ضفاف النيل الاعلى الكثيرة المستنقعات تناسب صفاتهم احوال الارض التي يعيشون فيها فهم بالنسبة الى البشر كالطيور المائية بالنسبة الى الطير فلطول اقامتهم في المستنقعات قد صارت ارجلهم مفلطحة يتمكنون بها من الوقوف على الارض الوحلية ولا يغرقون كما تكون الطيور الفشلفية الارجل في الماء . وسوقهم دقيقة طويلة ليس فيها لحم ورؤوسهم صغيرة منضغطة ورقابهم طويلة ويقفون ساعات على رجل واحدة يرصدون السمك ليصطادوه واذا مشوا تكون خطاهم بطيئة متسعة لطول ارجلهم

واما اهل اوجندة فبعكس هولاء مع ان المسافة بين البلدين ليست طويلة فانهم جيرانهم ومع ذلك فهم اهل نجاح ومعرفة وهيئات حسنة . وبجانب هؤلاء في جبال جمبراجا قبيلة من البيض اتت من اونيورو وبتداخلهم في الانساب مع القبائل المجاورة لهم اختلفت طبيعتهم وتغير لونهم بالتدريج غير ان الاشراف منهم لا يتزوجون الا من انفسهم ولذلك قد بقوا على اصلهم . وهولاء القوم لايحبون الحروب فباقلّ فتنة يلجأون الى شوامخ الجبال بين الثلوج فلا يستطيع اعداؤهم لحاقهم فيحتقرونهم لانهم جبناء

واقام شوينفرت بينهم مدة فعرف بتدقيق احوال الطائفة منهم المشهورة

باسم نيام نيام التي ذاعت عنها حكايات مختلفة فكان يقال ان لهم اذ نابا والحق ان هذا المظهر ناتج عن زعم في الملبس وذكر شوينفرت انهم اشد فطنة من السود وشعرهم غير صوفي يلفونه عقائص وهيئتهم بعيدة عن هيئة سائر جيرانهم وعيونهم كبيرة مشقوقة على شكل اللوزة وحواجبهم كثيفة وانفهم مستقيم عريض مستوٍ في كل علوه وبذلك يفرق هؤلاء عن سائر اهل افريقية وهم يحبون الحرب والشغل والصيد ولهم في ذلك حكايات . واكل لحوم البشر مشهور عندهم استدلّ على ذلك بكثرة المراقبة وعرف ايضاً ان منهم عدداً قليلاً لا ياكلون لحم اعدائهم

وبين الدرجة الاولى والدرجة الثانية من العرض الشمالي الى جنوبي ارض نيام نيام مواطن امة يقال لها العقاه وهم صغار الاجسام جداً ولهم في الحكايات والسير المتعلقة باواسط افريقية مكان عظيم . فاذا سافر الانسان في النيل الاعلى ووصل فوق غندوروقو وسار في نهر جور او طاف في جوار ألبرت نيانزا يقول له رفاقه من اهل البلاد انه سيرى في اواسط افريقية قوماً من القزم يعترضونه بخصومات شديدة. ولهم في الصيد مهـــارة وحذق واقدام حتى ليهجمون على الفيل برمح بسيط كانهم يطاردون غزالاً . فاذا دنا احدهم من الفيل يرميه بنبلة في عينه ثم ينغمس تحت بطنه ويطعنه بالرمح ويهرب بسرعة قبل ان يصل اليه خرطوم الفيل وهم الذين يصدرون على الاكثر العاج الوافر الى ارض السودان المصرية . ولا يبلغ طول الواحد منهم اكثر من ذراع ونصف غير ان شوينفرت سعى بينهم وهو يقيس الاجسام فوجد ان اطولهم لا يبلغ اكثر من متر ونصف ويفتخر حكام السودان ان يكون من جملة حشمهم جماعة من هولاء للتفكه باعمالهم

وبالنظر الى التركيب الطبيعي يقال ان الاسود ارشق في الاعمال البدنية من الاوروبي الّا ان عضلة غير قوي . واما بالنظر الى القوى العقلية فالسود في ادنى درجة بالنسبة الى البيض لانهم لا يعرفون الّا الملاهي الخشنة ولا يفهمون

من الافكار الأمّا نتيجة مادّية وتاثيراتهم اذا حدث حادث تكون عرضية قصيرة الوقت ويوصفون بسلامة الطوية وعدم التعرض للاذى في الاماكن التي لا تفسد بها طباعهم ولا يهينهم تجار العبيد واذا أُحسن اليهم تحسن خدمتهم وتطيب انفسهم جدًّا ومن عوائدهم المستقبحة التي تشنع سحنتهم وتزدري بها اجسادهم استعمال الوشم والتخديش والقطع في بعض اعضائهم ثم دهن رؤوسهم وابدانهم بالتراب اللزج والادهان استمرارًا حتى تتولد في ابدانهم الهوام بكثرة عجيبة لتراكم الاوساخ . وكثيرون منهم يدهنون ابدانهم بشحم ورماد لاتقاء لدغ الحشرات . والخلاعة في بعض القبائل فطرية . وفي جهات النيل الاعلى يتخذون اطيابهم وادهانهم من روث البقر وبوله ومن الرماد ويغسلون آنية اللبن ونحوها ببول البقر استعاضة عن الملح لعدم وجوده عندهم

والوشم والتخديش امر عام عندهم وتجريح ابدانهم بخطوط طويلة وقلب حافتي الجرح الى الخارج يورث اثرًا ثخينًا قبيحًا ويثقبون آذانهم ويكبّرونها بطرق مخالفة لطريقة هنود البرازيل ويعلقون فيها ادوات مختلفة وكذلك تفعل النساء بانوفهنّ وشفاههن وقد يعلقنَ في الشفتين قطعًا مستديرة من الخشب وكلما كانت المراة بارعة في التبرج والغنج تكون الخشبة اكبر . واحسن الحلى عندهم القلائد . واكلة لحوم البشر يتخذونها من اسنان القتلى واذا لبس الانسان قلادة من اسنان من قتلهم بيده كانت قيمتها كبيرة جدًّا

والعاج في تلاع نهر كونغو كثير جدًّا وبخس الثمن لان التجار لم يتصلوا الى تلك الاقطار وبهِ تقوم حليتهم ويعملون منه اساور وخلاخل وادوات كثيرة لا طائل تحتها . وذكر ليفنستون وكامرون وستانلي عند دخولهم ارض منيامة ان نصف الكيلو من العاج كان يساوي اقل من غرش

وفي وادي زمبيز وبعض تلاع كونغو الاعتبار الاول للادوات النحاسية والنساء يكثرن من التحلي بها حتي يكون على الواحدة ما وزنهُ اربعون ليبرة . وقد يكون ثقل الطوق النحاسي وهو حلقات عديدة تلف بها العنق اكثر من ١٥

كيلو ولذلك اذا ماتت المرأة يكون اول ما يفعلهُ زوجها انهُ يقطع راسها ليبقى لهُ الطوق .

ومن غريب عاداتهم جعل اسنانهم ذات رؤوس حادة اما لسهولة غلبة الخصم خصمهُ اذا تدانيا في القتال او لسهولة مضغ اللحم النيء . وعملية ذلك تقوم بان ينام الطالب لذلك ويفتح فاهُ ويضع فيهِ خشبة لينة لئلا تتكسر السن بالعملية . ويركب العامل على صدره وياخذ سكينًا حادة جدًّا ويضعها على جانب السن ويضرب عليها بحجر ضربًا خفيفًا حتى تنفصل الشظية المراد نزعها من السن وتصير بالشكل المطلوب . وقد يبردون جوانب القواطع بحجر المبرد بين كل سنين فتصير بينهما فرجة زووية

ووجود مثل هذه العادات عند هولاء الناس يؤذن بتوحشهم والحال ان كثيرين منهم حضريون يتعاطون الزراعة بنشاط ومنازلهم اكثر اتقانًا ونظافة مما يرى في بعض قرى البلاد المتمدنة . وفي جوار زمبيز الاعلى وكونغو الاعلى حيث لا اتصالية لهم بالاوروبيين وجدت عندهم صناعة في البناء تدل على حذق شديد .

واما اطعمة اهل افريقية فتدل في الغالب على اقبح ذوق واخلاق خشنة واظهر مثال لذلك سكان ضفاف النيل الاعلى وكونغو . فالدنقة والشلوق امتان معروفتان بكثرة الماشية ولا يذبحون منها شيئًا للاكل بل ياكلون ما يموت منها بمرض او غيره . فدأبهم الصيد فان قلَّ لديهم لجأوا الى اكل الجرذان والضباب والحيات . وامة البنجو تفعل اقبح من ذلك فلا ياكلون اللحم الا اذا انتن ويطلبون بقايا الحيوانات التي تفترسها الضواري والجوارح فيدخنون اللحم اذا كان جافًا ليلين ويسهل هضمهُ على زعمهم . ويحبون كثيرًا محتويات كروش البقر حتى الدود الذي يتولد فيها واذا مات انسان او قتل يصبرون على جثتهِ حتى تصير جيفة منهرئة فياكلونها . ولذلك قد يدفنون اللحم في التراب الى ان يفسد وقد يحفظون لحم البشر مقددًا الى ايام المجاعة

فهذه العادات المستهجنة الوحشية تدل على شدة اعتقادهم الخرافات وهي كثيرة عندهم تضيق دون تفصيلها بطون الدفاتر واكثر حكام الداخلية يودّون بقاءها في الرعية ليحفظوا بها ميزانية سيادتهم ونفوذ سلطتهم. ومن اقبحها عادة اهل دهومي عند تنصيب الحاكم الجديد فانهم يذبحون له ذبائح بشرية لاعتقادات وحشية . وقبيلة بنجلة القاطنة على ضفة كوَندو وهو نهر يصب في كونغو من الجنوب ومن عادتهم ان ملكهم الجديد يعمل له وليمة مولفة من ربع ثور وربع كبش وفخذ انسان تسلق معًا . ثم يقطع ساقيه وهو واضع رجليهِ في بطن احد الاشقياء . وفي جهات البحيرات لكل قرية شجرة عظيمة تعلق بها جماجم القتلى في الحروب وفكوكهم وقد يجد المسافر في الطريق اشجارًا معتلقة بها هياكل بشرية بارجلها والرؤوس الى الاسفل . وفي اوروا بين زَبري وتنغانيقا تقوم حفلة جنازة الملك باعمال ليس يسمع بافظع منها فاولاً يحوّل مجرى النهر الذي يكون في ذلك المكان وبعد ما ينشف المجرى الاول يحفرون فيهِ اخدودًا ويطرحون فيهِ عدة نساء في قيد الحياة ففي الطرف الواحد من هذا اللحد تكون امرأة دابة على يديها وركبتيها لتكون مجلسًا للميت وتحمل الجثة احدى ارامله وتجلس اخرى تحت رجليهِ وتكون البواقي كفراش وغطاء له يدفنّ في الحياة الا الزوجة الثانية فانها تقتل قبل ان تدفن . وقد يبلغ عدد نسائهِ المدفونات اكثر من مئة ثم ياتون باربعين او خمسين عبدًا من عبيده ويذبحونهم على قبرهِ ليرووا ثراهُ بدمائهم . وبعد هذا يردون النهر الى مجراه

واكل لحوم البشر في افريقية عادة قديمة جدًّا ولا تزال سائدة فيها اكثر مما في غيرها من اقطار الارض البربرية وقد بحث الباحثون في الاسباب الداعية الى ذلك فنسبوها الى امرين الاحتياج الى الاطعمة والاعتقاد فوجد السياح ان الاقطار التي يكثر فيها هذا الافتراس قليلة الخير فاقدة الخصب ليس فيها من الحيوانات ما يسد العوز وذلك اكثرهُ في الاقاليم الاستوائية . ووجدوا ان الذين يمارسون الحروب يحبون ان ياكلوا لحوم اعدائهم القتلى

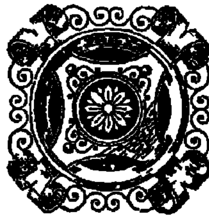
ولاسيما اذا كانوا ابطالاً موصوفين بالشجاعة والبطش لاعتقادهم ان هذه القوى التي كانت فيهم تنتقل الى الآكل بابتلاع لحمهم . حتى انهم يذبحون الاسرى لاكل لحومهم ويقصدون قتل من يقدرون عليه بغير حرب . والذين يموتون بالامراض في قبائل كثيرة يبيعهم اقاربهم كاصناف التجارة فياكلهم المشترون وقد يتركون الجيف حتى تفسد كما ذكرنا آنفًا . وفي الحروب ينقضون على القتلى والجرحى انقضاض النسور وياكلون لحمهم ويشربون دمهم بشراهة شديدة . وذكر سبيك وبعدهُ ستانلي ان قبيلة على الشاطىء الشمالي الغربي من تنغانيقا لايحرثون ارضهم ولا يزرعون حبوبًا ولا بقولاً مع ان التربة في غاية الجودة والخصب بل ياكلون الجيف ولحم البشر نيئًا واذ يزعمون ان كل الناس تفعل فعلهم تراهم يخافون ويهربون اذا قدم التجار بلادهم واذا شعروا بان معهم مريضًا مقارب الموت يطلبون ان يشتروهُ . وهذه العادة غالبة عند القبائل المجاورة لكونغو الاعلى . وفي بلاد اوريزا راى السياح حول القرى كثيرًا من الجماجم مصفوفة صفوفًا مرتبة تدل على ان ذلك المكان كان مكان وليمة قائمة بلحم البشر . ووجد ستانلي صفًا في قرية واحدة عددهُ ٨٦ جمجمة . وطالما طاردهُ البرابرة ليفترسوهُ ورفاقه وهم يصيحون اللحم اللحم وقد راوهم غنيمة شهية . ومنهم جماعة اعجبتهم جدًا فصاحة التراجمة فاشتهوا ان ياكلوهم وطلبوا ذلك الى السيّاح ولام ستانلي قومًا لانهم قصدوا قتله او قتل رفاقه وهم لم يضروهم بشيء فقالوا لو كنتم في مكاننا لما تركتم لحومًا شهية كلحومكم تفوتكم فلم يجد لذلك جوابًا وفي ذات يوم انتبه من منامهِ في الصباح فوجد شبكة على كل جماعتهِ نصبها البرابرة ليلاً لئلا يتمكنوا من الهرب وليسهل عليهم قتلهم واكلهم

ومن الامم الافريقية المشهورة باكل الناس امة يقال لها مومبوطو مع انهم اصحاب عقول وفنون ونظامات ويشتغلون الحديد والنحاس وطالما يغزون القبائل المجاورة لهم فينهبون المواشي ويقتلون الناس وياكلونهم وياخذون الاسرى الى منازلهم ويقتسمونهم وياكلونهم عند الاقتضاء وقد يدخنون اللحم

او يغلونهُ ويحفظونهُ مدة وشهد شو ينفرث باقامتهِ عندهم ان هذه العادة عندهم كعادة آكل لحم الضان والبقر في البلاد المتمدنة .وانما يؤثرون لحم الانسان على لحم الحيوان ابقاء على المواشي لينتفعوا بمحاصيلها . وفي بلاد غريكلند كهوف كثيرة مملوءة من جماجم البشر وعظامهم وهناك آثار كثيرة تدل على ولائم بشرية حافلة كانت تقام فيها

وتجارة العبيد في افريقية اشهر تجارة تحصل منها الارباح الوافرة فلا يكاد صقع منها يخلو من اسواقها الرائجة والغاء الاستعباد في البلاد المتمدنة لم يمنع بقاءهُ في اواسط افريقية وتعاطي التجارة سرًّا . ولما كانت الحرية مطلقة كان يصدر كل سنة من سواحل افريقية نحو ٣٥٠ الف عبد

ولما كثر ذلك ما عاد المساكين يعتبرون الحياة بشيء ولا عاد للحرية عندهم قيمة وصاروا يبيعون انسباءهم واولادهم وراى ليفنستون بعضهم يبيع الولد من اولادهِ بما يساوي عشر بارات عندنا . وبعد تردد العرب الى جهات منياما لهذه التجارة كان العبد يباع ببارتين وما ذلك الاَّ لكثرة الدواعي التي لاتجعل لهم قيمة كالنهب والسلب والقتل والحريق ونحو ذلك



الفصل الثامن

مخاطر افريقية

بالجد والثبات والهم العالية ولخدمة العلم الشريف والحمية والشهامة قد انصل السياح الى النتائج المطلوبة من احوال افريقية مخاطرين بالانفس باذلين مالاً لا يقدر بعنى الاهوال والمشقات والتهديدات ومقاومة المصاعب المختلفة. فلا بد ان الجمهور يشكر فضل هولاء الابطال العلميين ويتاسف على من فقد منهم شهيد المعارف

ومن المعلوم ان رحلات مثل هذه تقتضي مخبرة خاصة في الجغرافية والطبيعيات وقوة عقل وحسن تدبير واقدام على الاهوال ونفوذًا ادبيًا وماديًا وهذه المزايا لا تتفق الا لافراد من عالم الفضل

واذ كان لا يتيسر لكل من هولاء الافراد استصحاب رفقة تقوم بسد الاحتياجات الدفاعية والتخليص من المهالك الشديدة رايتنا يا لاختبار ان كثيرين منهم سافروا تائهين في مجاهل الارض اما واحدًا واحدًا او اثنين اثنين فالاعتداد اذن بشهامة القاصد الشخصية لا بكثرة وسائلو المادية ومن اشهر هولاء المتقحمين اهوال اواسط افريقية ليفنستون وبرث ونخنيغال وشوينفرث وكامرون وسربابنتو وسافرنيان دوبرانسا وستانلي وغيرهم

ولكن لابد لاي من كان من مادة اولية لا يستغنى عنها في مثل هذه الظروف سواء كان وحدهُ او مع جماعة وهذه المادة هي سيدة المواد ودولاب الكون "المال" لان اللوازم التي تطرأ على السائح في الغربة اكثر بكثير من التي ينفق عليها في وطنهِ اما لاقتناء ادوات او لابتياع الزاد او لارضاء خواطر اصحاب النفوذ في تلك الاقاليم ونشر التحف والطرف بين الشعوب فكان غنى انكلترا متكفلاً بتنشيط رجالها فنالت قصب السبق في الاكتشافات الافريقية وفازت بالافتخار في ذلك على غيرها من الامم الاوروبية

ثم ان الشجاعة والمال لا ينفيان المخاطر ولا يمنعانها فقد تعرض للسائح اكبر مهلكة في اول بلوغهِ البلاد التي قصدها قبل ان يقوم بابحاثهِ . والمخاطر في افريقية عديدة ومتنوعة . فاول كل شيء يحول دون مرامهِ استنكار اهل البلاد فلا يتيسر لهُ التجول بسهولة لان ابن افريقية لا يعرف من امر الاسفار الأ مقصدًا واحدًا وهو التجارة فالسائح الذي لايتظاهر باسباب التجارة تلقى عليهِ الظنون ويرجم بالاحداق وطالما تسدّ دونهُ الطرق بهذا السبب وبتناقض الثقات ولاة الامور اليهِ في تلك البلاد والتاجر ايضًا تعرض لهُ مثل هذه الامور لتحاسد القبائل فاذا دخل بلدًا يمنعهُ اهله عن تجاوزه الى غيرهِ لئلا تفوتهم فائدة تجارتهِ او يخسروا منها شيئًا . فأدّت التجارب الى ان يختار السائح طريقهُ في البلاد الخصبة القائمة بها اسباب الزراعة لان اهلها لايكون فيهم الطمع وشدة الحرص كما في الاماكن القليلة الخيرات . ثم تختلف سهولة دخول السائح باختلاف السواحل التي يدخل منها فالداخل من السواحل الشرقية يتيسر لهُ تخلل البلاد لكثرة الانهر وارتفاع الارض بحيث لايكون لمصبات الانهر مستنقعات ولا عندها غدران راكدة . واما من جهة الساحل الغربي فالارض مستسهلة ومصبات الانهر كثيرة المستنقعات والغدران تولّد الامراض الحموية والوبائية وغيرها

ومن اية جهة اراد السائح الدخول ومعهُ من المال مبالغ جسيمة ونفقة

واسعة يجب اول كل شيء ان يستاجر جماعة وافرة من اهل البلاد لحمل اثقاله وحرسًا للذبّ عن نفسهِ عند الاقتضاء . واذ يعلم حملة الاثقال باحتياج السائح اليهم يطمعون في الاجور طمعًا فاحشًا فيقضي اياماً يساومهم ويخابرهم اما اجمالاً او افراداً حتى يتفق معهم على ما يرضيهم. ثم تعرض صعوبة اخرى في تغيير الاسباب التي ينالونها فقد ياتي غدًا من اخذ اليوم نقودًا مثلاً ويطلب عوضها قطنًا وقد ياتي من اخذ ثوبًا ويطلب بدلهُ شريطًا معدنيًا وهكذا .وقد يلتزم ان ينفق عليهم اموالاً كثيرة قبل ان يتم لهُ العدد الوافي ويتيسر مسيرهُ في الطرقات ويجب ان يكون معهُ من البضائع ما بين قماش وماعون ومتاع وادوات ما يناسب ويكفي كل بلد يدخلهُ للمقايضة والهبات وغير ذلك . ففي هذا البلد مثلاً تروج الثياب الزرقاء وفي الآخر الثياب المخططة وفي ذاك المنقوشة وفي غيره يرى ان عشرين ذراعًا من النسيج لاتساوي قطعة من سلك معدني وفي سواه يفضلون الحديد على اللآلىء وبعضهم يؤثرون الخردة على نفائس الملابس وبعض القبائل لاترى في مقام المسكرات شيئًا من التحف المصنوعة واللولوء مطلوب اكثر من غيره لكن لا يرضاه الواحد بالشكل واللون والهيئة التي يحبهُ بها الآخر فالبعض يطلبون ان يكون منظومًا عقودًا والبعض اساور وهولاء يفضلون الابيض ولا قيمة عندهم للسواه وغيرهم يختارون الاحمر وهولاء يرغبون في اللآلىء المستديرة واولئك في المستطيلة وهلمّ جرًّا .فليتصور القارىء كم من الصناديق والرزَم يجب ان يستصحب السائح وكم من الناس يستلزم لنقل هذه الاثقال اذ لا يحملون على الدواب الا الجمال نادرًا والرجل لايحمل اكثر من عشرين رطلاً عادة فعلى هذا لا يكفي السائح اقل من ٢٠٠ رجل يكونون معهُ في كل طريق يمرّ بهِ ومشاربهم مختلفة فلا يسهل عليهِ ان يرضيهم

وفضلاً عما تقدم يجب ان يكون معهُ ذخيرة كافية من زاد وخيام ونحو ذلك فقد يتفق انهُ يصل الى مكان لايجد فيهِ شيئًا من الطعام ولا الصيد وقد

يصل الى محلة لا يبيعونه بها زادًا الا ببضاعة توافقهم فان اتفق خلوهُ منها مات هو ورفاقه جوعًا . وفي بلاد السودان يكون الامر اقبح من جهة اختلاف مشاربهم في انواع البضائع لكن توجد واسطة يمكن اتخاذها لارضائهم وابتياع الزاد منهم وذلك انهم يتعاملون بنوع من الصدف يقال له كوري وتزيد قيمته كلما تقدمت في الداخلية وهذا الصدف يوتى بهِ من سواحل زنجبار وآسيا و يصل الى دهومي ومنها يتوزع في داخلية البلاد والانكليز يجمعون منه كميات وافرة من بنغالا وقيمته هناك عشر قيمتهِ في اواسط افريقية ففي السواحل ينظمونه قلائد كل قلادة مائة صدفة واما في الداخلية فيعدّونه واحدة واحدة وكل ٢٥٠ صدفة تساوي قيمة فرنك . والجمل يحمل منها في الداخلية مائة الف صدفة

واذا جمع الرجل بضائعهُ واستوفى لوازمهُ وكان الفصل القادم عليهِ لا يوافق لدخول تلك البلاد فقد يقيم اياماً مقاسيًا العذاب من الحاجات رفاقهِ وقد يضطرونه الى السفر بالف حيلة فيدهمهُ فصل الشتاء ويقاسي من شدة الامطار وتزايد المستنقعات اهوالاً شديدة وقد يهلك هو وكل رفاقهِ فعليهِ ان يجتهد في مداراة جماعتهِ الى ان ياتي الوقت المناسب ولذلك توقفت رحلات كثيرة عدة اشهر لا تستطيع السفر . وكثيرًا ما عدل السائح عن الرحيل في السواحل الغربية لقلة وجود الحمالين بعدان يسعى في جمعهم مدة سنتين . وقد يتفق ان هؤلاء الخائنين يصلون معهُ الى داخلية البلاد ويتركونه لاسباب مختلفة وهناك الويل

واعظم سبب لترك رفاقهِ اياه مداخلة وكلاء التجارة والتجار الذين مصلحتهم في البلاد التي يدخلها فياتون سرًّا ويغرّون الحمالين او يخدعونهم ويخوفونهم من اخطار الطريق ويوسوسون اليهم بكل مكرٍ فيصبح السائح وليس عندهُ احد فاذا لم يتيسر له جمع غيرهم يضطر ان يترك جانبًا كبيرًا من بضائعهِ ولا يثق ان يودعهُ احد الاهالي لئلاّ ينهب فليس ثمّ الا وسيلة واحدة ليكفي شرّهم وهو ان يحرق ما لا يقدر على نقلهِ

واحيانًا يجتاز المسافر مسافة طويلة من الطريق براحة وطمأنينة ثم تعرض الصعوبات فجأةً فتنقلب عليهِ نوايا الاهالي ويطمعون في بضائعهِ والرؤساء يجسسون امتعتهُ وبعد ان ياخذوا شيئًا كثيرًا من هباتهِ يطمعون باكثر منها ويستعلمون اهمية ما معهُ فينآمرون عليهِ ويدبرون على قتلهِ وقتل كل ابيض معهُ وينتهبون البضاعة . فيلتزم ان يستصحب رجالاً أُولي باس وشدة يحمونهُ عند الاقتضاء ويفتحون لهُ الطريق في القبائل الجافية ولذلك اتخذ ستانلي في رحلتهِ الثانية ثلثمائة رجل كلهم بالبنادق

وليس الناس فقط يحولون دون مرام السياح بل قد يلاقي الصعوبة والشدة من الاقليم والارض التي يمرّ فيها فان اخطار فصل الامطار في الاماكن الاستوائية عنيفة جدًّا . وغياض الاراضي الخصبة الشديدة النمو ذات مخاطر اشد من مخاطر الصحراء الرملية والقفار الجرداء فالعفونات السمية الخبيثة القاتلة تكون دائمًا كامنة في تلك الغياض المنقعية تتولد من بقايا النباتات والحيوانات وتنشرها حرارة الشمس وتحمل الرياح نتنها الى اماكن بعيدة فتقتل من تصيبهُ والصعوبة ايضًا في اجتياز تلك النباتات الكثيفة الملتفة المعترضة في الطرق وفي اجتياز الغابات الظليلة الشديدة البرد ثم التعرض بعدها لحرارة القفار الشديدة التي تاتي بامراض قتالة .وقوة الرطوبة هناك ما لا يخطر على البال فانها تتلف كل جسم تعرض الحديد وتسرع العفونة والفساد في الحطب والخشب وترخي جلد الحيوان المسلوخ حتى يصير هلاميًّا وتنزع من البارود وهو في جوف البندقية قوة الانفجار والخضرة تفسد تحت مياه الامطار الراكدة . فالويل لمن يدهمهُ فصل المطر وهو في الطريق فقد يضطر ان يمشي في المياه والمنافع عدة اسابيع والماء او الوحل الى ركبتيهِ ووسطهِ ايضًا كما حصل لليفنستون فدهمهُ الموت قبل استدراك المرض . وفي تلك الظروف تشتد الحميات وتنتشر الاوبئة فلا تبقي ولا تذر وقد تصل القافلة الى قرية فيخاف اهلها العدوى ويطردونهم فترى جثثهم منثورة على طريقهم

وفوق هذه الضربات والمصائب توجد اهوال اخرى ليست اقل اذىً فان تلك الاقطار الاستوائية تفيض بحشرات قتالة يقضي منها المسافرون امرّ العذابات . فعلى شواطىء تشاد وڤكتوريا وتنغانيقا يكون البعوض مخيّماً كالغيم المنتشر فيمنع الدنو منها . وفي اماكن اخرى يوجد النمل الابيض الذي لا تدفع هجماتهِ قوة بشرية ويتلف كل ما يصادفهُ من طعام ولباس وادوات خيام وبضائع ونحو ذلك

وفي افريقية الجنوبية ضربتان عظيمتان الجراد والذبابة المعروفة بالصيصَى فالجراد يجرد كل ارض يمرّ بها كما يفعل في اقطار السودان وجبال الاطلس . فقد يصبح المسافر والجوّ صافٍ والريح راكدة فيرى في الافق غيمة كثيفة سوداء مستديرة شاغلة مسافة عظيمة من الجوّ تتقدّم شيئاً فشيئاً ثم يسمع منها صوتاً كالنحل الخارج من خليتهِ لكن اشدّ كثيراً ثم تقترب فيرى الوفاً وربوات من افرادها تعلو وتسفل في تلك الغيمة المتملة . هذا هو رِجْل الجراد الهائل الذي يفرّ امام اصناف من الطير وهي لا تدعهُ حتى تتلفهُ او يتبدد وتختفي آثارهُ . فبمروره في بلاد تمسي والارض مكسوة بالخضرة وتصبح والارض جرداء كأن لا عهد للخضرة بها . واذا سقط على الارض يكون كبساط سمكهُ اربع اقدام وطولهُ ٧٥ كيلومترًا وعرضهُ بالنسبة . وانما سقوطهُ يكون بركود الريح فالويل للارض التي يحل فيها . فتاتي جوارح الطير وكواسر الوحش والحيات المختلفة تلتهم من تلك الوليمة الحافلة والناس ايضاً هناك تملأ سلالاً كثيرة من صغار الجراد ويذخرونها موْنة ويستمر مرور هذه الغيوم الكثيفة ساعات متوالية لا يمنعها ماء ولا نار وقد تقطع الانهار الكبيرة على جسور معقودة من جثث الطوائف المتقدمة بعد ان تهلك بالماء وتطفو على وجههِ الى مسافة بعيدة . واذا عرضت لها النار اطفأتها بشدة تراكمها حتى تسدّ عنها منافذ الهواء

فاذا طلعت الشمس وحميت اجنحتها قامت كلها فحجبت الشمس واعادت النهار ليلاً وحفيف اجنحتها يصم الآذان فتنتقل الى بقعة اخرى وتفعل ما فعلت

بالاولى اي تصيرّ اخصبها اجدبها

واما الذبابة المسماة صيصى فتوجد على الطريق بين بلاد الراس وجنوبي زمبيز فتكون هذه الذبابة الضربة الاليمة للقافلة . والاثقال هناك تحمل على الجمال وفي عجلات ضخمة يستخدمها الانكليز يضعون فيها الفراش والبضائع والصيد ويلفونها بجلود حتى لا يدخل العجلة شيء ويجرّ الواحدة نحو ثلاثين ثوراً و يصحب العجلات في غالب الاحوال رجال على الخيل فالذبابة المذكورة لا تتعرض للانسان لكنها توذي الخيل والبقر والابل فتاتي البهيمة وليس لها طنين وتنقض عليها وتتشبث بها بخرطومها النفاذ فتخرق الجلد وتمص الدم . فيحتار الحيوان بامره ويدور ويطفر ويتمرغ و يثب من مكان الى آخر وهو يتلوّى ويتقبض ثم يتلاشى ويسقط وقد سرى السم في بدنه وبعد هنيهة يموت

ووجود هذه الذبابة على مجاري المياه فللوقاية من اذيتها لا تمشي القافلة قرب الانهر ولا تورَد الحيوانات للشرب الا بعد الغياب لانها حينئذٍ تكون قد بانت وكف اذاها . وتكثر في بعض النواحي حتى يحتاج الناس ان يتحولوا عن الطريق الى مسافة بعيدة جدّاً ويدورون من غير جهة حتى يرجعوا الى طريقهم

واذا فاز المسافر بالنجاة من كل هذه الاخطار فعليهِ ان ينتظر خطراً آخر وهو مرض عضال دوريّ يتأتى عن كثرة مشقات الطريق والمخاوف . الشديدة وتغيرات الفصول وتقلبات احوال الجوّ واختلاف الاراضي ونحو ذلك . فيرجع الى بلاده وقد امل الظفر واستقبل الراحة ففي الطريق احياناً يصيبهُ هذا المرض وفي راحتهِ يلقى شقاءهُ . وقلّ من نجا من الاوروبيين برجوع سليم ونجا من هذه الاخطار نجاة تامة

فهذا كلهُ حبّاً بالعلم ونشر المعارف الجديدة بين اهل المعارف فليعتبر أُلو البصائر

القسم الثاني

رحلات مفصلة

الباب الاول

رحلة روشي اريكور الفرنسوي

الفصل الاول

تاجرّى – بلاد عادل – صالح ملك شوَى – مملكة شوَى

في ٢٢ شباط سنة ١٨٣٩ خرج روشي من القاهرة الى السويس ليدخل البحر الاحمر ويبلغ الولايات الجنوبية من بلاد الحبشة ومن هناك يذهب تحت حماية احد ولاة البلاد الى مجاهل افريقية الداخلية . فركب البحر من السويس الى جدة ومنها الى مخا وهما على ساحل بلاد العرب . ومن مخا مضى الى تاجرّى وهي على الساحل الشرقي من افريقية . هذه هي الطريق التي اجتازها في ثلاثة اشهر وكان وصوله الى تاجرّى في ٤ حزيران وهي مركز استعداده للسفر الداخلي

وتاجرى قرية حقيرة في بلاد اكثرها قفر قاحل ساحلها رملي ابيض

قائمة عليهِ اكواخ القرية الواحد وراء الآخر . وفي وسط البلاد الجبال الشامخة الصخرية عليها الآثار البركانية ممتدة من الجنوب الى الشمال وليس على سفوحها شيء اخضر . والبلاد بالاجمال خالية من الزرع والشجر الاماندر

قال روشي وهذا يحزن نفس السائح ويضعف عزمهُ كانهُ يرى من منظر هذه البلاد الكئيبة طليعة الاقطار العازم على دخولها واوائل الاخطار المزمعة ان تتراكم عليهِ في الداخلية

وأُدخل روشي على شيخ هذه القرية واطلعهُ على قصدهِ فالتزم ان يقيم فيها عدة اسابيع ووصفها وصفًا مدققًا . فقال عدد اكواخها نحو ٢٠٠ شكلها اسطواني قائمة على اوتاد مغروسة في الرمل ومغطاة باغصان يابسة . واهلها مسلمون يتعاطون التجارة بالمقايضة بين جنوب الحبشة و بلاد العرب ويصحبون القوافل ولهم مهارة في الكسب لتعودهم منذ الصغر ركوب الاخطار ومواصلة التجار . وطعامهم الذرة واللبن . و يستعملون السعوط عوض التبغ و يلبسون جبة قطنية تحتها رداء يشدونهُ بمنطقة يعلقون بها سكينًا او خنجرًا ويرسلون شعرهم و يضفرونهُ وشعر النساء وافر جدًّا طويل يجاوز الكشح ويلبسنَ درَّاعات من القطن . واصل هولاء القوم من قبيلة يقال لهم الدناقلة مواطنهم بلاد عادل الى حضيض جبال شوى وهم عشائر واسباط مختلفة

فلما خرج روشي من تاجرّى استصحب واحدًا من الدناقلة وواحدًا من اهل القرية للتحفظ والاهتداء واخذ في طريق شوَى فلم يصادف شيئًا يستوقف النظر لان الحرّ والقحولة سائدان في ساحل بلاد عادل الجبلي البركاني الاصل . والجبال كلها معتدلة الارتفاع متساوية القمم ليس فيها ما يختلف بهِ المنظر وتفيض الشمس نهارا حرارتها على تلك الهضاب والمفاوز فتجرّدها من كل عرق اخضر والمسافر لا يطيق شدة توهجها اذا كان غير متعوّد ركوب متونها

وكان شروع روشي في هذا السفر في اواخر فصل الشتاء فاتفق لهُ مصادفة زوابع وامطار شديدة فتوقف عن المسير فقال في وصف ذلك « تحدث

» كل يوم زوابع شديدة في اول الليل وتستمر ساعتين فلا يستطيع المسافر ان
» يتقي المطر فكنت اخلع ثيابي والفها واسترها جهدي حتى لا تبالـ والجأ الى
» بطون الصخور الشامخة وابيت فيها طول الليل على جلد بقر اخذته من تاجري
» وانغطى بجلد آخر لا يلبث ان يتبلل لوصول الامطار الي بعصف الرياح
» وجري السيول حولي بعنف القى من ترشاشه الهوان . فابقى ساعة او ساعتين
» متعذبًا بهذا الحال ثم تنقشع الغيوم ويصفو الجوّ وتجلى الكواكب ببهائها في القبة
» الزرقاء وتكون برودة الليل في شدتها مقابلة لحرارة النهار الاتونية »

وبعد ان تجاوز روشى قرية الكسيتانة راى بحيرة ملحة كبيرة محيطها نحو ٨٠ كيلو مترًا يكثر تبخر مائها ويزداد يوميًا حتى كان الملح عليها طبقة تمشي عليها الجمال الى مسافة بعيدة من الشاطئ واهل البلاد ياخذون كميات وافرة من هذا الملح ويحملونه الى الجهات وهو اهمّ اصناف تجارتهم

وبعد ان اجتاز بلاد عادل وصل الى قرية تيانو وهي اول حدود مملكة شوى وقد انتقل من ارض جرداء قاحلة الى اودية الحبشة النضرة الشجراء الكثيرة الخصب . قال اول ما قابلت القرية في راس هضبة خضراء تحف بها الاشجار رايت المنازل مجتمعة بنظام لا تظهر الا سطوحها المخروطية من خلال الاشجار الملتفة ووراء هذه الهضبة سلسلة جبال معترضة من الجنوب الى الشمال مولفة من هضاب ترتفع متدرجة الى مسافة بعيدة وكلها مكسوة بالاشجار تبهج الانظار وترتاح اليها النفوس

والاراضي التي دخلها آهلة عامرة كثيرة الزرع والبساتين سابغة الظلال حسنة الريع قد ساعدت بها يد الانسان يد الطبيعة حتى فاضت خيراتها وعم نباتها فهناك الاشجار المثمرة والزروع المختلفة بين حنطة واطريفل وذرة وحمص وفول وكتان وقطن وقصب سكر يبلغ كبرًا عجيبًا . وعلى جوانب الطرقات العوسج والعليق المشتبك وبين ذلك الياسمين والورد وغيرها من الازهار ومن الاشجار اللطيفة انواع السنط وشجرة الفلفل المشرّفة الاغصان كانها مخروط منقلب

تحمل ثمرًا احمر واصفر يكون عناقيد كحب الفلفل . واما الطيور الكثيرة الاصناف الزاهية الالوان فهي مما لا يدخل تحت الحصر تطرب الاسماع باختلاف الحانها وتسرّ الابصار ببهاء الوانها

ولما دخل روتي مملكة شوى كان الملك فيها رجلاً يقال لهُ صالح من سلالة ملوك يزعمون انهم من نسل سليمان الحكيم . يكرم الغريب يحبّ التداخل مع الاجانب ويجتهد في نشر التمدن في بلادهِ . وكان وقورًا مهيبًا في عيون رعيتهِ واعقل ملك تولى سريرًا في ارض الحبشة . قال روتي ان عمرهُ كان ٤٥ سنة وهو معتدل القوام حسن الهيئة لطيف الطبع ذهبت احدى عينيهِ على اثر رمد حاد وشعرهُ اسود كثيف مضفور بنظام يلبس جبة من قطن بيضاء مطرزة بخطوط حمراء

وكان عند وصول روتي مقيمًا في انغولولو حاضرتهِ الجديدة فارسل اليهِ رسولاً يدعوهُ اليهِ في الحال فدخل عليهِ في ٤ تشرين الاول محفوفًا بالخواص والحشم فوجدهُ جالسًا على سرير وحولهُ ثلثمائة رجل بايديهم المشاعل قائمين بوقار ونظام حسن . فسال روتي عن مقاصدهِ من هذه السياحة واستقصى الخبر عن الفنون والصناعة في اوروبا ثم صرفهُ وقد راٰهُ مضنكًا من التعب

قال روتي دخلت الدار يتقدمني ثمانية رجال بالمشاعل فادخلوني بيتًا فسيحًا يشبه البيت الذي فيهِ الملك ارضهُ مفروشة بالعشب الغض وفي جدرانهِ معلقة تروس مصنوعة من جلد فرس النهر ومزينة بالفضة قطر الواحد ٣ اقدام وفي وسط البيت مائدة مصنوعة من اغصان الخلاف ارتفاعها قدمان عليها خمسة صحون فيها الوان من اللحم واناءان فيهما عسل من اجود ما يكون وسلّة فيها موز تنتشر منهُ رائحة ذكية واناءان فيهما الجلاب اي ماء العسل ووعاء فيهِ الخبز فدعيت الى الاكل فجلست واكلت ما تيسر فوجدت تابل الطعام كثيرًا جدًّا حتى احترق حلقي من حرارة الابازير فاكثرت من العسل والموز . ثم رايت في جانب البيت كانونًا من حديد مطروق فيهِ الجمر يستخدم

للطبخ والاستدفاء

وكان الرجال الثانية المشاعلية واقفين حول المائدة والمشعل يصنع من قطعة نسيج قطني مغموسة بذوب الشمع وملفوفة على نفسها حتى تصير في غلظ اليد فيكون نورها عظيمًا جدًّا فكان البيت ملتهبًا بالانوار ولمعان الفضة التي على التروس فشعرت حينئذٍ بانبساط نفس وانشراح صدر وتجدد عزم وهمة نسيت بها المشقة التي قضيتها واستسهلت المصاعب التي ساصادفها في رحلتي هذه لان راحة ساعة في مثل هذه الظروف وهذه البلاد الطيبة تنسي الانسان كل هم وتعب وتهوّن عليهِ ركوب الاخطار

وثاني يوم دعا الملك بروشي وجلس لهُ جلسة طويلة سائلهُ فيها بتفصيل عن صناعة الاسلحة والبارود والثياب المستعملة في اوروبا ونظام حكومة فرنسا ونحو ذلك. وقدم لهُ روشي بضع بنادق ومطحنة للبارود فابتهج جدًّا وانعم عليهِ بخيل كريمة وجماعة لخدمتهِ وما عاد يفارقهُ ساعة

وبعد ايام بينما كان العملة يشتغلون بالخشب اللازم لمطحنة البارود خرج في صحبة الملك للتجول في انحاء المملكة فراى لهُ قوة عسكرية عظيمة وكان يقوم بتدبير الامور احسن قيام وكل يوم مساء يصنع وليمة حافلة (ذلك في الايام التي كان بها يتاهب للرحيل) فتوضع الاطعمة على مائدتين كبيرتين من اغصان الخلاف توضعان في بيت كبير وتجعل عليها سبعة اوعية ضخمة مملوءة بالوان من اللحم. ومعها كميات كبيرة من خبز الملة بعضهُ من دقيق الحنطة وبعضهُ من دقيق حب الاطريفل ترصف بين القصاع كالاساطين وفي بعض القصاع قطع كبيرة من لحم البقر معها مرق فاتر يتبل بدقيق الفلفل وفي بعضها شرائح او بِضَع من لحم الغنم معلقة بعظمها عدة شرائح في عظمة واحدة ودقيق الفلفل مذرور عليها كلها بكثرة وكل هذه اللحوم غير تامة النضج وقد تكون عوضًا عنها بضع كبيرة من لحم البقر نيئة وهم يستطيبون اللحم النيء يذرّون عليهِ دقيق الفلفل فقط. ولكثرة اكلهم هذا اللحم تتولد فيهم الدودة الوحيدة المشهورة عندهم

ويدفعونها باكل نبت يعرف بالشاو وهو الحشيشة الحبشية استجلبها من هناك روشي فكان لها فعل جليل وشهرة لاتنكر في بلادنا . والشراب الفاخر عندهم هو الجلاب ليس ماء الزبيب كما يصنع الآن عندنا بل ماء العسل الجيد يسكبونهٔ على مائدة الملك في بواقيل زجاجية يسمونها بريلة

ويجلس المدعوّون على العشب المفروشة بهِ الارض وجواري الملك يحضرن الاطعمة فيتناولها الرجال ويقدمونها على المائدة. واما الملك فلا يواكل المدعوين لسمو منزلتهِ بل يجلس على سريرهِ وحولهُ الضباط ويعقد مجلس لهو وطرب ويسرّ بخلاعة ظرفائهِ والمطربون يشتغلون بآلاتهم وهي الطنبور والشبابة او نحوها فتخرج الحانهم بجلبة عظيمة واختلاط قبيح

وفي ٢٣ تشرين الاول مشى الملك في مقدمة عسكرهِ وقد اظهر من الابهة والفخفخة ما لامزيد عليهِ فتقدّموا الى جبال بحيرة ماريّن ببلاد جالة . وفي ٣٠ منهُ وصلوا الى النيل الازرق فاندهش روشي عندما رآه لكثرة ما يذكر عنهُ من الاخبار المؤثرة

وامة جالة من اجمل امم افريقية حسان البنية طوال القامة جبينهم عالٍ عريض انفهم مائل فمهم لطيف لونهم نحاسي شعرهم مضفور ضفائر صغيرة مسترسلة حول الراس هيئتهم تدل على الشهامة واللطف يتعودون ركوب الخيل منذ حداثتهم وحمل الرمح والترس فهم فرسان حاذقون اشداء على المشقات اصحاب بسالة واقدام في الحروب ويتعاطون الزراعة بهمة ونشاط ولباقة وعليهم زعيم ذو باس وتدبير ولكثرتهم وحسن تدابيرهم لاتقوم في وجههم امة بافريقية ولا اكثر ولنسائهم جمال كنساء عادل ويلبسن كازياتهنّ تقريباً

واما مذهبهم فليس كالوثنيين ولا الموحدين تماماً فيعترفون باله واحد لكن لايعبدونهُ عبادة ظاهرة والخرافات عندهم كثيرة وقد اقتبسوا من النصارى جيرانهم بعض عوائد منها احترام يوم الاحد فيجتمعون فيهِ ليصلوا الى الله ان يمنحهم مواسم جيدة ويجمعون ضمائم من الزروع ويتأ بطونها وياخذون قضيباً

طولهُ ذراع يمسك الرجل باحد طرفيهِ والمرأة بالآخر ويرقص كلاهما دائرين حول شجرة خاصة وهم يقولون اللهمَّ اجعل زرعنا خصباً واحفظنا واحفظ ارزاقنا ومواشينا . وهلمَّ جرًّا . وتارة يرفعون القضبان فوق رؤوسهم وطورًا يخفضونها ثم يسجدون وينهضون ويغنون ويكررون الصلاة المذكورة الى مضي نصف ساعة ثم يقدمون ذبائح من الغنم

واذا ارادوا طلب معونة الله في الحرب فالصلاة قلما تتغير واما الرقص فيختلف فتصطف النساء حلقة حول الشجرة المقدسة عندهم ولا تمسك الواحدة يد الاخرى ولا شيئاً آخر بينها ثم ياتي الرجال على الخيل بسلاحهم ويترجلون وياخذون الرماح والتروس ويصطفون حلقة وراء النساء فتبتدىء واحدة بالرقص بان تضم رجليها وتضع يديها على حقويها وتواصل الرقص وثبًا على رجليها بجدَّة وخفة ويفعل فعلها الرجل الذي يكون خلفها ثم كل واحد من الجماعة يفعلون ذلك مناوبة واخيرًا ياخذ بعضهم بايدي البعض ويرقصون دورًا نهائيًا دائرين حول الشجرة وهم يستغيثون بمعونة الله وبعد ذلك يذبحون ثورًا وياكلونهُ ويركبون ويمضون الى الحرب راسًا

وفي ٢ تشرين الثاني وقف الركب عند دير يقال لهُ روَى ليبانوس وفيهِ ضريح لراهب مشهور عندهم يحترمونهُ ويزورونهُ وموقع الدير جميل جدًّا تجري عندهُ ساقية يقال ان لها احوالاً عجيبة . وبعد بضع ساعات من الراحة اتم الملك سيرهُ الى انغولولو فدخل دخلة جليلة وفي ١٨ منهُ سافر وبصحبتهِ روشى الى انكوبر العاصمة القديمة لمملكة شوى . وهي واقعة في السند الشرقي من سلسلة جبال بركانية الاصل وتشتمل على عدة بيوت متفرقة بعضها عن بعض وحول كل بيت جنينة مسيجة بسياج حيّ من العوسج ونحوهِ وسطوح البيوت على شكل مخروطي ترتفع بين الاشجار الغضة بتدريج سلمي يبهج النظر . وعدد سكانها كان نحو عشرة آلاف

ومنازل الملك قائمة على اكمة مخروطية تشرف على الجبل وحولها خمائل

نضرة مرتبة ترتيباً حسناً ومن راس الاكمة يشرف الناظر على حرش تحت القرية اشجارهُ ارز وشربين مرتفعة في السحاب ارتفاعاً عظيما وهناك اصناف الطيور المغردة بكثرة عجيبة تحيي بها تلك البقعة ويلقى معها الانسان في حرّ النهار ظلاً سابغاً ورطوبة تنعش القلب

ومن جهة الشرق يمتد النظر الى مسافة نحو ٢ اكيلومترًا على بلاد متموجة السطح عجيبة الخصب لا يقع النظر فيها الا على الخضرة النضرة المدبجة بالوان قوس السحاب

ولما راق لروشي المقام في انكوبر اخذ يتاهب لعمل السكّر لانهُ كان قد وعد الملك بذلك فامر الملك باستحضار كل ما يطلبهُ من الادوات

قال فطلبت جماعة من الخزافين وسألتهم ان يصنعوا لي عشرين قالبًا و في ٢٠ منهُ اخبرني الملك انهُ ارسل جماعة يقتلعون الفي عود من قصب السكر وكان فرحاً جدًا بان السكر سيصنع في بلادهِ . فسالتهُ ان يحضر لي خمسين شابًا لاستخدمهم في العمل حين وصول عيدان القصب فقال انهُ يحب هو نفسهُ ان يشتغل ايضًا ويقف على كل حركة اعملها في اثناء الشغل وان يكون العمل في احد بيوتهِ

ثم أُتي بالقصب فكان اجود نوع رايتهُ في مصر وغيرها لم ارَ اعظم ولا اغلظ منهُ ولا اكثر ماء ولا احلى طعمًا فامرت بسلخ لِيطهِ (اي قشرهِ) وان يقطع قطعًا صغيرة ويهرس في هواوين من خشب ثم يوضع الحاصل في قطعة كبيرة من الخام و يعصر ثم اشتغلت باغلاء العصير وصفيتهُ بملحفة من صوف ثم صعّدت ماءهُ حتى صار في الدرجة المناسبة من التخثر فسكبتهُ في القوالب حتى يتبلور . وهذه العمليات اقتضت يومين وكان الملك يشتغل معنا بيدهِ وكثير من خواصهِ اشتغلوا ايضًا . و بعد ايام اخرجت السكر من قوالبهِ وقدمتهُ للملك فطرب طربًا غريبًا وتعجب عجبًا شديدًا من صناعتي

وعمل روشي للملك غير ذلك من الاعمال النافعة في الصناعة وغيرها

حتى الحَّ عليهِ ان يبقى في مملكتهِ وانهُ يوليهِ احدى الولايات . فابى واقام عندهُ بضعة اشهر شهد في اثنائها صيد القرود وحرب الحبشة والجالة ثم رجع الى اوربا عن طريق ناجرى وزيلع

واذ كانت هذه الرحلة قصيرة غير مستوفية الاخبار اقتُضي ان يرحل رحلة اخرى فيها بعض التفاصيل كما سياتي في الفصل الثاني من هذا الباب

وعند رجوعهِ اصحبهُ الملك صالح برسالة الى الملك لويس فيليب هذه ترجمتها عن الاصل الفرنسوي

من النجاشي صالح ملك شوى الى لويس فيليب ملك الفرنسيس

اكتب اليكم كتابي هذا بعد ان سمعت روشي يذكر عظمتكم فسار اليكم قلبي طالبًا صداقتكم ومن العادة ان الهدايا بين الاصحاب المتباعدين اول وسائل المواصلة ولذلك ارسل اليكم بعض اشياء من محاصيل بلادي وهي ترس وسيف وخاتم فضة واسوار حربيٌّ وخلدًا وجلد نمر اسود وجلد لبوة وريحان وفرس وكتابان اسم احدهما سنكسار والآخر فتح النجاشي . ولست احسب هذه الاشياء لائقة بعظمتكم ولكنها اشياء اثرية للتفرج

لا اقدر ان ابادلكم الوداد الذي يحصل من النظر والكلام فاكتفي ان اوادَّكم بالكتابة لاني لا استطيع ان اراكم الا بالحبر والورق ولا اكلمكم الا بلسان روشي فقد فوضت اليهِ ان يشافهكم بافكاري وارجو ان تسمحوا بعودهِ اليَّ وان تقولوا لهُ عند رجوعهِ ماذا تحبون ان ارسل لكم من بلادي مما لا يوجد في بلادكم فاني سابادر حالاً الى مصلحتكم واعيد اليكم روشي بالسلامة

وبركة ربنا الآب ومخلصنا الابن تكون معكم   امين   النجاشي صالح



الفصل الثاني

رجوع روشي الى مملكة شوَى

لما دخل روشي بلادهُ لقيهُ الملك لويس لقاء جميلاً واحتفلت بقدومهِ جمعية العلوم وهنأتهُ بسلامتهِ وكان الملك صالح قد الح عليهِ بالعود واعدًا اياه احسن المواعيد . فاغترَّ بمثل هذه الاسباب واطمعتهُ نفسهُ بان يرحل رحلة ثانية يكتسب بها شهرة وعظمة اكثر مما حصل عليهِ

فخرج من مرسيليا في اول كانون الثاني سنة ١٨٤٢ وبلغ الاسكندرية في ١٥ منهُ والقاهرة في ٤ شباط ومضى منها الى القصير عن طريق قنا

وركب البحر الاحمر الى جدَّة ثم الى مخا ثم ذهب بحرًا الى تاجرّى وكان الانكليز في تلك الجهات مشدّدين على السابلة الاجنبية فاضطر ان ينكص راجعًا في طريقهِ الى مخا فثار على سفينتهِ نوء شديد قال في وصفهِ ما ياتي

حينما بلغنا منتصف الطريق بين تاجرّى ومضيق باب المندب عصفت رياح شديدة وحدث نوء لم اعهد لهُ نظيرًا في سابق حياتي واخذت الامواج تتقاذف سفينتنا الخسيسة والتيارات تفتح امامها هاوية بعد هاوية وترفعها تارة الى علوّ عظيم ثم تهبط وقد ظننا ان اللجة ابتلعتنا . واشتدت الرعود وسقطت صاعقة على مقربة منا فشقت البحر كحية من نار وظهر على اثرها لهيب ازرق واخضر وانتشرت في الجوّ رائحة كبريتية كدنا نختنق بتنفسها

ثم اشتد عنف التيارات وعصف الرياح وجرّت من السفينة اشياء ثقيلة وتمزقت القلوع وغرق احد الدناقلة . وصار البحرية يصيحون ويستغيثون وقد اذهلهم الحال ووقفوا حيارى من شدة الهول . واما انا والرئيس فبقينا متجلدين متبصرين وجعلنا نضرب البحرية حتى ينتبهوا الى اعمالهم ويخرجوا من خمولهم . ثم تمكنا من اصلاح القلوع وقال لي الرئيس ان الصواب ولو خاطرنا بالنفوس والاموال ان نتقدم الى ما بين الصخور على ساحل افريقية ولما صار النهار قريب الانصرام راينا صخورًا مخيفة كانت السفينة تدنو منها بسرعة فندم الرئيس على ما فعل ولم نعد نستطيع العود فراينا الخطر جسيما واصابتنا الشدة كاننا راينا الموت باعيننا غير ان الياس احيي بنا الهمة وجدد نشاط البحرية فاتوا بشناكل قوية وربطوها بحبال متينة مربوطة بالسفينة واخذ الشناكل ثلثة من ابسل البحرية ووقفوا على المقدم فلما قربت السفينة من الصخر الاول القوا انفسهم في البحر وتقدموا الى الصخر وهم يقاومون عنف الامواج الزاخرة فبلغوا الصخر وعلقوا بهِ الشناكل تعليقًا شديدًا فوقفت السفينة وحصلت في الامان ولولا ذلك لتحطمت بالصخور القريبة الوصول اليها (يقال ان بحرية البحر الاحمر من العرب مشهورون منذ القدم باقتحام اهوال البحر والتبصر في شدائدهِ)

وثاني يوم ركد البحر وبعد يومين بلغوا مخا فاضطر روشي ان يمكث فيها مدة طويلة حتى اتفق لهُ حادث استطاع بواسطتهِ ان يدخل بلاد الحبشة في وقت اقرب مما كان يرجو . فان احد اهل امبابو وهي قرية مجاورة لتاجرى كان مصابًا بقرحة تعرف بقرحة اليمن وكان قد بلغهُ ان روشي طبيب وشفى جماعة ممن اصيبوا بهذه القرحة . فاتى اليهِ وطلب ان يشفيهُ

وهذه القرحة على ما ذكر الطبيب بتي الفرنسوي عبارة عن آفة غنغرينية تصيب السودان والعرب ونحوهم ولا تصيب الاوروبيين وذلك على ريف البحر الاحمر من حد عدن الى ينبع . تبتدئ ببثرة صغيرة تحدث من خدش او جرح وغالبًا في الساق وبعد ثلثة ايام تلتهب وتتورم وتكون في وسطها نقطة

ظاهرة ثم تحدث دائرة النهاية حول الالتهاب الاول ويكون في الوسط غور قليل . ثم تنظف القرحة ويصير مكانها احمر وبعد خمسة او ستة ايام تتعاظم حتى تصير كراحة اليد ويحدث معها غور بيّن فتصيب العضلات وترتفع حافتها وتنقلب فيشعر المصاب بآلام شديدة ولا يستقر من شدة الوجع ويتسوس العظم وينكشف وتخرج منهُ شظايا وينتهي الحال بموت العليل

ووعد روشى العليل انهُ يعالجهُ على ان يسرّ لهُ في قريتهِ منزلاً يامن بهِ الى ان يرد عليهِ جواب الرسائل التي ارسلها الى الملك صالح قبل ان بارح تاجرى املاً ان يسهل وصولهُ اليهِ . فاجابهُ الرجل الى ما طلب وبعد ان شفي وفى بوعدهِ ففي ١٦ ايلول دخل روشى امبابو وهناك وصلهُ كتابان احدهما من الملك صالح والآخر من الملكة يذكران فيهما تسهيل السبيل للوصول الى بلاطهما ويتوددان اليهِ كثيرًا ورسالة اخرى باسم والي تاجرى فيهِ اشد الوعيد اذا لم يبلغ روشى المرام من اجتياز البلاد او اذا مُسّ بضرر

فبهذه التسهيلات تيسر لروشى الخروج من امبابو في ٢٥ ايلول بعد ان اجتهد والد العليل الذي شفاهُ ان يبقيهُ ضيفًا مكرمًا عندهُ وارسل معهُ جمالة تحمل اثقالهُ لكن باجرة فاحشة . والطريق التي سلكها هذه المرة في بلاد عادل نفس التي سلكها اولاً تقريبًا فانهُ مرَّ بها بالبحيرة وانتهى الى دنيالي وهي من اول القرى في حدود بلاد شوى

واخبر مع ذلك انه في اثناء الطريق حدثت حادثة تستحق الذكر وهي ان الماجور هري الانكليزي كان معهُ جماعة لتقصد بلاد شوَى فنزل واديًا يقال لهُ وادي جُجتّا ولم يحترز على نفسهِ لتوقي هجمة اللصوص ليلاً وكان قد ربط الخيل في وسط الوادي واقام حرسهُ الاوروبي في جهة السفح الشمالي والضباط في جهة الحضيض الجنوبي فمضت عليهم اول ليلة لم يصادفوا شيئًا واما في الليلة الثانية فقبل نصف الليل بساعة عصفت ريح شديدة واثارت في الوادي سحائب من الغبار ثم سقط قليل من المطر قطرات كبارًا وفي وقت قصير

ركدت الريح وصفا الجوّ وطلع القمر . وفي الساعة الثانية بعد نصف الليل سمعوا صراخًا مزعجًا علموا انهُ صراخ مستغيث لهف فهبّ الناس واخذوا بنادقهم ومشى هري مع جماعة من جنودهِ الى مكان الصوت فوجدوا رجلين يتشحطان بدمهما وبجانبهما رجل برتوغالي من التبع مبقور البطن مندلق الامعاء

وكانوا قد راوا عند سماع الصوت شبحين راكضين في بطن الوادي واختفيا بين شعاب الجبل فاراد الدناقلة اصحاب هري ان يلاحقوهما فلم يهتدوا الى مخبإهما في تلك الكهوف وشقوق الصخور

فظن الجماعة ان هذا العمل لم يكن على سبيل السرقة لكن على سبيل الافتخار بالقتل لان من عادة اهل عادل ان الذي يقتل رجلاً ينال فخرًا ومجدًا في قومهِ ويُعدُّ من الابطال ويكون لهُ حق ان يعلق بشعرهِ المدهون بالشحم ريشة نعام بيضاء وان يجعل في زندهِ اسوارًا من نحاس وان يزين سلاحهُ بشيء من الفضة . فهذه الامتيازات الفاخرة عندهم هي التي سهلت لذينك القطين ارتكاب هذه الجناية عمدًا

وذكر حادثة اخرى تستلفت الانظار ايضًا لما فيها من التاثير قال كان من جملة النساء التابعات للقافلة فتاة اسمها نفيسة آتية مع اخيها الى بلاد شوَى لتتزوج برجل من الدناقلة كان قد خطبها . ومن العادة عند اهل عادل ان يتعوا نساءهم بشيء من الحرية لكن يفرضون عليهنّ القيام بالاعمال الشاقة . وكان اخو نفيسة قد وكل اختهُ بقيادة بعيرين من اضعف جمالهِ فعانت بها تعبًا شديدًا حتى رقّ لها قلبي وكنت ابادر لمساعدتها في اكثر الاوقات . ففي ذات يوم كنت في موخرة القوم حيث كانت نفيسة فدخلنا واديًا صعب المسلك جدًّا في الطريق بين عمر علوف وكبلالون فسقط احد البعيرين عباء فالقيت بندقيتي ونقدمت فانهضتهُ معها وثاني يوم حدث لهُ ما ذكر فاردت ان اعينها ايضًا فنظرت اليّ نظرة الغضوب وقالت لا تدنُ فانت

عيون (اي تصيب بالعين) وقد اصبت بعيري فما بالمت وتقدمت فانهضت الجمل فقالت حين تقدمت «يَهْ يَهْ ديبو ديبو الفرنجي» اي عجبًا ما اوقح هذا الفرنجي. وهو الذي يمنع بعيري من المسير. فاخذت احاول اقناعها ان هذا الاعتقاد خرافة لا معنى فيها ولم اقدر على ذلك الا بعد ايام واخيرًا عرفت ان قصدي تخفيف تعبها لا زيادته فقالت ارى ان لك سلطانًا حتى على الحيوانات أفلست مخيفًا كما يعتقد اهل بلادنا. فشرحت لها بطل الخرافات وصدق الانسانية فأنست بي من ذلك الوقت فقدمت لها شيئًا من الخرز ففرحت بذلك واخبرت رفيقاتها فحسدنها. واتخذتني حينئذٍ صديقًا

وبعد ان اجتزنا عواش رايت البعير قد سقط لا يستطيع نهوضًا لشدة الاعياء فانبت حسب العادة لانهضه فقالت دع هذا العناء فسأصل اخيرًا او يقضي عليَّ في القفر فصرت اسليها والطف مصيبتها فقالت اراك رجلاً صاحب قدرة ولطف ويا حبذا لو كنت تتزوجني فنصير عائلة واحدة واخي شجاع مثلك فلا يقدر احد علينا فضحكت في نفسي من هذا العرض الغريب وقلت ما أحسن ما اكون زوجًا لذات الجمال الاسود. ثم قلت لها لاصرفها عن محاورتي سلي اخاك هل يرتضي ان تتركي خطيبك. وفي يقيني انه لا يسمح لان هذه العادة عندهم ان لا تعطى امرأة لغير خطيبها. فكان كذلك وحزنت نفيسة وتاسفت كثيرًا وقالت عندما افترقنا اني سأتزوج نعم لكن تحقق اني لا انساك مدى حياتي

ولما دخل روشى بلاد شوَي كان الملك صالح في انغولولا ينتظرهُ بفروغ صبر فاسرع ودخل عليهِ فالتقاهُ بشوق شديد. وكان لابسًا حلتهُ الرسمية وجالسًا على سرير مغطى بمخمل قرمزي فمد يدهُ الى روشى باشًا فاعتنقهُ غير مبالٍ بعادة البلاد فصار يسائلهُ عن سفرتهِ وعن الهدية التي اتاهُ بها ثم راى انهُ محتاج الى الراحة فاذن لهُ بالانصراف لياكل وينام

وثاني يوم جلس لهُ جلسة طويلة وسالهُ ايضًا اسئلة كثيرة فاخبرهُ

روشي بكل ما اراد فعقد مجلساً حافلاً ثالث يوم اجتمع فيهِ الخواص ليقدم لهُ روشي الهدايا النفيسة التي اتاهُ بها من فرنسا

قال وكنت قد احضرت هذه التحف ورتبتها على نظام احسب انهُ يدهش النظار باظهار شيء وراء شيء فابتدأت بالسلاح الضخم واول ما اظهرت مئة بندقية ثم خمسين طبنجة وثماني قرابينات ومئة غدارة وخمسين سيفاً للفرسان وخمسين للمشاة . ثم قدمت شققاً من الجوخ الاحمر وطنافس من صوف وشققاً من الحرير ملونة ومنقوشة . وقدمت للملك خاصة لانهُ مولع بالصيد بندقية مزدوجة كثيرة الثمن مزينة بنقوش ذهبية ارسلها اليهِ الملك لويس فيليب . ثم اريتهُ كثيراً من الخوذ والدروع المختلفة وهي تلمع كالفضة فحالاً امرني ان اجربها عليهِ فابتهج جداً بمنظرها . وهم لا يعرفونها هناك

ثم احضرت مدفعين وقدمتها لهُ وكان عندهُ مدفعان قدمهما سابقاً جماعة من الانكليز ولم يكن يستعمل المدافع في الحرب لكن كان يبتهج ويفتخر باصواتها في الاعياد والاحتفالات الخاصة فسالني ان اطلق المدفعين ليرى الفرق بين صوتهما وصوت اللذين عندهُ فقلت لهُ نترك هذا العمل الى وقت آخر اكثر مناسبة . ثم الهيتهُ عن ذلك باشياء اخرى فامرت باحضار اربعة صناديق كانت في منزلي فلما رآها حركتهُ رغبتهُ شديداً حتى يعلم ما فيها فاخذت افتحها واحداً فواحداً واظهر لهُ منها الغرائب

فاخرجت اولاً آلة موسيقية ذات صندوق واساطين وزنابر تديرها فتضرب ثلاثين نغمة فلما رآها تعجب واراد ان يعرف ما هي فادخلت اسطوانة في الصندوق فتقدم وصار يتفرس ليقف على سرها وهو لا يستقر من قلة صبره واما اركبها على مقتضى الاحكام فلما احكمت التركيب سالتهُ ان يصغى هو وسائر من في المجلس ثم ادرت الدولاب فتحركت الآلة ودارت الاسطوانة ورنت الحانها المطربة . فما اقدر ان اصف الهيئة التي حدثت على اوجه الحاضرين والحركات الاشارية التي ظهرت منهم عند الوقوف على هذه الغرابة . وهمّ الملك

مرات ان يسالني عن هذا السرّ العجيب لكن ادهشتهُ الالحان عن قطع هذه اللذة العظيمة . فلما انتهى اللحن الاول اوقفت الآلة لاجعل نشويقًا لما يلي وحينئذٍ فاضت عليَّ السوالات كالمطر المنهمر ففتحت الصندوق وصرت اشرح لهم كيفية العمل بهذه الآلة

فطرب الملك اشد الطرب واظهر لي بالف دليل تشكراتهِ القلبية لافضال ملك فرنسا الذي اتحفهُ بهذه التحفة السنية فاتخذت تلك الفرصة لكي اريهُ هدية اخرى اكثر اعتبارًا واشدّ عجبًا من هذه فقلت لهُ الذي رايتهُ كلهُ من صنعة بلادنا لكن ملكنا اراد ان يجعل العلاقة الحبية الصحيحة بيننا فارسل اليك ما هو افخر واثمن مما رايت . ثم اخرجت لهُ من صندوق صورة الملك بالزيت فلما وقع نظرهُ عليها اخذهُ الاندهال لان الصور الضخمة الموجودة في كنائس الحبشة لم تظهر لهُ شيئًا من دقائق هذا الفن اللطيف . فكان يرى الصورة المذكورة كانها شخص مجسَّم يكاد ينطق فجهد متحيرًا ثم صار يمد يده اليها لعلهُ يلمس جسمًا من لحم ودم فلا تصيب الا دهانًا منبسطًا فيزداد تحيرهُ كالولد الذي يمد يده الى بركة ماء ليمسك خيالهُ المنعكس . ثم صار يقلب الصورة وينظر الى قفاها لعلهُ يدرك مصدر هذا السر ويجسّها من الامام والوراء وهو لا يهتدي الا الى الاندهاش وتلبك الافكار والارتياب

فقلت لهُ اخيرًا ان كثرة اللمس تؤذي الصورة وتنقص رونقها وهذا الذي تراهُ ليس الا دهانًا على نسيج نانج رونقهُ وتمثيلهُ للملك من دقة الصناعة . فسمح حينئذٍ لخواصهِ ان يتفرجوا عليها وامرهم ان لا يمسها احد بيدهِ وبعد ان فرغوا ارسلها الى الملكة واوصاها نفس الوصية وفي نصف ساعة ارجعت الى المجلس فوضعها على سريره وجعل يتامل فيها وقال حقًّا ان هذه التحفة افخر التحف التي ارسلها اليَّ ملككم وهي مما يزيدهُ عندي اعتبارًا وحبًّا فكاني اراه واحدثهُ . فقلت لهُ الآن يوافق اطلاق المدافع اكرامًا لملكنا . فاجاب في الحال وقمنا فاطلقنا طلقتين لم يكن لهما صوت غريب ثم امرت بتكثير كمية الحشو فلما اطلق المدفع كان لهُ

انفجار عظيم فدهش الملك وامر بابطال الاطلاق

وعند انفضاض المجلس طلب روشي ان يقابل الملكة فاذن لهُ الملك فدخل وسلم عليها سلام الجلال فاجلَّت مقامهُ ولاطفتهُ كثيرًا فقدَّم لها نفائس الحلل الحريرية فاختارت الساذجة منها ولم تكترث بالمنقوشة

وفي آخر النهار اولم الملك وليمة فاخرة على ما وُصف آنفًا. واتفق لروشي ان يقابل هناك الوفد الانكليزي تحت امرة هري المار ذكرهُ وكان القصد من رحلتهم الوقوف على احوال البلاد والتجارة لان انكلترا كانت منذ مدة موجهة انظارها الى بلاد الحبشة ولذلك كان ارباب الدولة والملك والملكة لا يكرمون نزلاءهم فسافر هري برفاقهِ غير شاكرين

وفي تلك الاثناء شكا الملك حدارًا فاستوصف روشي فوصف لهُ الفرك بدهن انثى فرس النهر وهي عادة جارية في بعض اقطار افريقية . وكانت غاية روشي في هذه المسالة لا مداواة الملك فقط بل الحصول على هذا الحيوان ليرسلهُ الى مجمع الآثار في باريس

فاصحبهُ الملك بجماعة من المجربين في الصيد فمضى بهم الى نهر شيا شيا لكثرة فرس الماء هناك فاجتاز بصقع يعد اخصب وانضر صقع في بلاد الحبشة وهذا الصقع يشقهُ النهر المذكور فيكسبهُ رونقًا خاصًّا فضلاً عن كثرة النباتات والاشجار واصنافها المتعددة . فان النهر يجري اولاً الى جهة الشمال الغربي ثم ينعطف غربًا و يقع في النيل الازرق . ومن عند قرية شيا شيا الى جبل موجير ينحدر بسرعة في وادٍ عجيب العمق يشق هضبة شوَى شقًّا قائمًا غريب المنظر وعلى مسافة ٤ كيلومترات من انغولولو قبل ان ينصبَّ في هذه الفجوة العظيمة يكون ارتفاع مجراه عن سطح البحر ٢٧٠٠ متر و بعد مسيره ٤٨ كيلومترًا نحو الشمال الغربي يصل الى جوت فيكون ارتفاعهُ هناك نحو ١٤٠٠ متر فيكون تحدرهُ من وهدة الى وهدة على التدريج سريعًا عنيفًا ولاسيما في زمن فيض الامطار . فنضارة البلاد على ضفتيهِ من اعظم ما يكون وتكثر القرود في تلك الغياض المشتبكة

والطرق في سفح الجبل الى مجرى النهر مستوعرة جدًّا ضيقة وحولها وهاد يقشعر البدن من النظر اليها فلا تسلك تلك الشعاب الا بغال الحبشة المتعودة

فلما شرعوا بصيد فرس الماء كان رفاق روشي برمونها بالحراب كما تطعن الخشب لصفاقة جلودها واما روشي فكان يطلق الرصاص في ادمغتها فتيسر له قتل انثى كانت قد ولدت منذ عهد قريب . ثم قتل غيرها ايضًا ولم يوفَّق الى لقاء مطلوبهِ . فبعد العناء الشديد عاد خائبًا الى انغولولو فلم يلبث اياماً قليلة حتى وصلتهُ رسائل ملأت قلبهُ فرحًا

وذلك ان اثنين من السياح الفرنسويين كانا في رحلة علمية الى بلاد الحبشة وقصدا الجولان في مملكة شوَى فأوقفا على تخوم جمزة فارسلا الى روشي يطلبان مساعدة الملك لاتمام سفرهما فعرض روشي القضية على الملك وكان حينئذٍ يتاهب لغزو بلاد الجالة فارسل الاوامر المشددة بايصالهما اليهِ ولم تمضِ الا ايام قلائل حتى اجتمع الاصحاب

وامة الجالة هذه اشرنا الى شيء من احوالها في الرحلة الاولى لروشي وانها متاخمة لكل ارض الحبشة من الجنوب وانها ذات شدة وبطش وحسن صورة بينها وبين الاسمرية مشابهة من عدة اوجه الَّا انها ليس لها تمدنهم . والفتن بين الفريقين متواصلة ومن عادة ملوك شوَى اكتساح بلاد الجالة كل سنة فيتيسر لهم لما بين قبائلها من الانشقاق ان يقوهم في ربقة الطاعة واذلال النفس

فشهد روشي وصاحباه هذه الغزاة التي قام بها الملك صالح وراوا من كثرة العساكر وحسن نظامها ما اعجبوا بهِ وكانت القبائل تنضم الى العسكر في اثناء الطريق من كل بلد يصلون اليها بين فرسان ومشاة الى ان بلغوا معهد الاجتماع الاول فبلغ عدد الفرسان نحو ثلاثين الفًا كلهم بالرماح والسيوف وتروس الجلد يموجون في تلك السهول كبحر متلاطم وبريق اسنتهم ولمعان سيوفهم مما يبهر الانظار والجيوش مشتبكة كانها رِجْل من الجراد يزدحم بعضه ببعض والجلبة وقعقعة السلاح وصهيل الخيل تملأ الجوّ والغبار مضروب فوقهم

سرادقات واقبل الملك على فرس من جياد الخيل مزخرف العدة ووقف في مقدمة الفرسان بابهة وجلال . وعلى جانبيهِ رجلان بجلان مظلة من المخمل القرمزي في اعلاها صليب وتفاحة فضة ووراءهُ الساسة بالتروس المزينة بالفضة وعشرة من الكهنة ونساء يقمنَ بخدمة مائدة الملك ومغنون ومغنيات والات موسيقية واربعون رجلاً يضربون النقارات . وقدام الملك على بعد ثلثمائة قدم مهر يحمل سلة مغطاة بالجوخ الاحمر فيها الكتب المقدسة وحولهُ جماعة معهم البنادق يحرسونهُ اتخذوا ذلك مثالاً لتابوت العهد حيث كان يسير امام الاسرائيليين في الحروب

فاجتمعت العساكر كلها في محلة فيني فيني في ٢٤ اذار سنة ١٨٤٣ . فكان عدد الفرسان ٤٥ الفًا وزحفوا على بلاد الجالة. فراى المساكين انهم لا يستطيعون القيام في اوجه عساكر كالرمال كاملة السلاح متقنة النظام . فلجأوا الى جيرانهم تاركين نساءهم واولادهم وشيوخهم وبهائمهم فوجدها الحبشة في سهل تاجي ونزي غنيمة باردة لا تقدَّر لها قيمة . فاوقف الملك عساكرهُ اولاً ثم بعد ساعة قال لهم كرُّوا والنصر من الله فانقضَّ الجيش كالسيل المتدفق او كالذئاب الكاسرة

قال روشي فاقشعرَّ بدني من فواحش هولاء الوحوش وفظائعهم وما كنت ابالي لو كانوا يحاربون رجالاً لكن يبذلون شراستهم في من لا قوة لهم ولا دفاع فضاق صدري وما عدت استطيع صبرًا على فعالهم القبيحة فاقتحمت المعمعة لعلي اخلص بعض الانفس البريئة والمخلوقات الطاهرة . فرايت والله يعلم شدة تاثري شيوخًا مقطعة مهشمة ونساء مطروحة بجانب اطفالها الرضع المذبوحين وجثثًا واشلاء لا يقع عليها النظر ما لم يرتعد البدن ملطخة بالدماء معفرة بالتراب مقطعة مهشمة . اطراف مقطوعة ورؤُوس مدحرجة وبطون مفورة وصدور مشققة وهلم جرًّا . ثم رايت فارسين منقضين كالبازي على امراة وهي تنهب الارض ركضًا وتستغيث فسللت سيفي واندفعت لنجدتها فلم يدركها الفارسان حتى كنت قد وصلت واشرت اليهما ان يرجعا عنها فهزَّ احدهما رمحهُ وصوبهُ اليَّ فضربتهُ

بالسيف صفحاً على وجههِ فطاش من شدة الضربة ونكص فهرب رفيقهُ ثم لحق بهِ. وتقدمت الى المراة فجثت على ركبتيها ومدت اليَّ يديها متوسلة ودموعها تجري فاومأْت اليها اني اتيت لانقذها من يد عدوها واذا بجندي قد اقبلوا فرجلت احدهم عن دابتهِ واركبتها وهي في ذهول مما اصابها

وعمل روشي عدة اعمال مثل هذه وكاد اصحاب الملك يفتنونهُ لو لم يظهر بسالتهُ وغرضهُ باسر جماعة من اعداء الملك حتى ارتفعت مكانتهُ عندهُ اضعافاً ولما عاد الجيش الى المعسكر حدثت منهم عدة حوادث فظيعة من ذلك ما قال اني سمعت مرة صوت اطلاق بنادق من مكان غير قريب فمضيت لاعلم ما الخبر فعلمت ان جماعة من الامهرية اطلقوا بنادقهم على قوم من الجالة مختبئين في الاشجار فقصدت المكان فاذا هو حضيض هضبة محاطة بشجر العرعر والامهرية يفتشون على اعدائهم في كل شجرة من تلك الاشجار وحالما يرون واحداً منهم يرمونهُ بالرصاص. وتقدمت الى شجرة علمت ان فيها ثلاثة ازمع الجماعة ان يرموهم وكانت الشجرة عالية مشتبكة الاغصان فجعلت انظر من خلالها حتى رايتهم بعد الجهد واردت ان اخلصهم فاشرت اليهم ان انزلوا فاطلق سبيلكم وعليكم الامان فلم يصدقوني وبقوا متعلقين باعلى الاغصان لا ينطقون بكلمة فتقدمت لاصعد الشجرة لعلي اقنعهم اذا وصلت اليهم فحالما امسكت الجذع سمعت صوت طلق وسقط واحد منهم امامي ميتاً وتراكض الجنود اليهِ ليقطعوهُ واختصموا عليهِ وازدحموا حتى ما استطعت الخروج من بينهم الا بتجريد سيفي

وفي ذلك الوقت اعلن الملك رجوعهُ الى انغولولو واسرع في المسير جداً حتى كان يقطع المراحل بسير حثيث لا يبالي بسدة الامطار فاضرَّ المطر بروشي كثيراً. وكانت الغنيمة التي غنموها ٨٧ الف راس من المواشي فضلاً عن الاسرى وكان حظ روشي منها الحصول على حريتهِ ليرجع الى بلادهِ وقد بلغ منزلة رفيعة جداً حتى لقبهُ الملك بالوالي او الحاكم ونظموا في مديحهِ الاشعار الكثيرة وعرض عليهِ الملك احسن الولايات لكي يبقى في بلادهِ فابى لشدة شوقهِ الى الوطن

العزيز وخصوصاً لان صاحبيهِ السائحين سافرا الى غندار

فبارح روشي مملكة شوى ومرّ بقرية البو أمبا في ولاية ايفات وكانت فيها سوق تقام في اوقات مخصوصة وتعرض فيها اصناف البضائع المعروفة في افريقية الشرقية واستبضع ما لزمهُ لقطع بلاد عادل. ومن تلك البضائع البن والقطن والتبغ والعبيد يباعون بادوات زجاجية . والمنسوجات القطنية والحريرية يؤتى بها عن طريق البحر الاحمر. والمعاملة التي يتعاطونها لذلك قطع من الملح اهليلجية الشكل طول الواحدة نحو ربع ذراع وسمكها نحو قيراطين ويسمونها هناك عمولة والعشرون واحدة منها تساوي تالرو (عبارة عن نحو ٥ فرنكات) وهم يقونها جهدهم من الرطوبة ومع ذلك فطالما تتلفها خصوصاً في فصل الشتاء فتصير قيمتها قيمة الملح الجاري لان وزنها ينقص لذوبان جانب منها . واسعار الماشية في السوق المذكورة بخسة جدًّا فالخروف يباع بخمس قطع من العمولة اي بنحو فرنك وربع واما الثور فيباع بسبعين قطعة . وقس على ذلك

وفي اثناء تجول روشي في ذلك القطر راى حمة اي نرعًا حارًّا وقتل عندهُ نمرين ففرح الاهالي بذلك فرحًا شديدًا فالحّ عليهِ الملك وامرائهُ الحاحًا شديدًا ليبقى في البلاد فاعتذر واستاذن بالرحيل وركب الطريق المودية الى تاجرّى وعرف في اثناء الطريق ان الرسائل التي كان يبعث بها الى فرنسا كانت تقطّع قطعًا وتوزّع بين الناس بصفة طلاسم . واتفق لهُ ايضاً لقاء صاحبتهِ نفيسة الآنفة الذكر . ثم بلغ تاجرّى ومنها مضى الى زيلع ثم الى مخا ودخل مصر والقى عصا الترحال في فرنسا في آخر سنة ١٨٤٥ . وبعد مدة عُيّن قنصلاً لفرنسا في جدة فتوفي بها سنة ١٨٥٤

الباب الثاني

رحلة برتون وسبيك

١٨٥٦-١٨٥٩

الفصل الاول

وصف ساحل زنجبار — جزيرة ومدينة زنزيبار — ممباس ونجاني

القسم من ساحل افريقية الواقع بين راس الفِلَقس وراس دلجارو (كناية عن عشر درجات من المنطقة الاستوائية) يشبه قوساً كبيرة تقعيرها الى جهة البحر الهندي . والقسم من هذا الساحل الذي يصل الى خط الاستواء ممتدًّا على مسافة بعيدة من شاطىء البحر منخفض رملي قاحل واحوال هذا الساحل مجهولة تقريباً الاان جزءًا منهُ تسكنهُ برابرة الجالة ويقال لهم الصومالة وتجتازهُ قوافل التجارة الى بلاد قفَّة وتشقهُ سواقٍ قليلة وتنشق من اطراف هضابهِ انهر تجري بعيدًا الى جهة الغرب . واكد قبطان انكليزي انهُ راى من البحر ثلجاً مقيماً كل السنة على قننهِ الشامخة

واول نهر يصل اليهِ السائح يقال لهُ نهر جوب مصدرهُ ذوب هذه الثلوج ومنبعهُ على خط الاستواء وصعد بهِ بعض السياح الى مسافة بعيدة . ورُجي انهُ يكون آمن سبيل للوصول الى منابع النيل (ليعلم ان هذا الكلام كان قبل سنة ١٨٦٠)

وإذا تقدمنا على الساحل المذكور جنوبًا يتغير منظر الطبيعة فترى الارض عند الشاطئ مسنسهلة مكسوة بنبات غض كثير جدًّا وعلى بعد قليل من الشاطئ ترتفع الارض دفعة واحدة وتتدرج في الارتفاع بدرجات متتالية الى ان تنتهي بنجد عظيم يقال له موقا رنجا حتى ان من ينظر الى البلاد من البحر يراها كسلسلة جبال مستعرضة بازاء شاطئ البحر . وفي السفوح كثير من الغابات وتخرقها اودية كثيرة تستطيل الى جهة الشاطئ وتجري منها انهار كثيرة على ضفافها انواع النباتات المدارية الملتفة . ومن هذه الانهر دانا وسباقي وهو قريب من فرضة ميلندة القديمة المشهورة . وبنجاني وفنجاني ولُوفِدْشي ورُعوما ومن طعم مياهها يحكم على انها صادرة من الثلوج الذائبة وقال كرَبْف وربمان من مرسلي الانكليز انهما رايا على بعد شاسع من الساحل بين تلك الجبال قنتين شامختين يسميها الاهالي قليمان جارو وقانيا والثلج عليهما دائم

والبلاد الجبلية المرتفعة تسمى في جهة الشمال أُوقمباني وما يلي جنوبًا جاغة ثم اوسمبارة وبعد ذلك متقدمًا الى المغرب يقال للهضبة العالية أُونيا موازي . ومن وراء ذلك تتلاشي في مجاهل افريقية الوسطى. وكان يقال قديمًا بتاكيد ان في هذه البلاد المسماة اونيا موازي بحيرات كبيرة تملأُها مياه الامطار المدارية الغزيرة فتنشق منها انهر كبيرة . والقوافل التي تسير من الساحل الى جهات تنغا وكيلوا وبجاموبو لتطلب العاج في الداخلية والعبيد ونحو ذلك من اصناف التجارة تقول باجماع انها تصل من طرق مختلفة الى بحيرات كبيرة لاتجاز الا بالقوارب الكبيرة . فوجود هذه البحيرات اثبت فضلاً عن الفائدة الجغرافية وجود اسباب تجارة مهمة في تلك البلاد الخصبة الغنية . وبهذا السبب عقدت انكلترا لجنة لاستقراء تلك الاقطار وفي مقدمتها رجلان من ضباط عسكر الهند وهما برتون وسبيك صاحبا هذه الرحلة . فاستفيد من اخبارهما ما سياتي في الفصول التالية

والقطر المنخفض الملاصق للبحر يقال له مريما وهو كثير الخصب لكن

غير طيب الهواء فلا يمكن للغريب ان يستوطنهُ ما لم تصبهُ الحمّى . وسكانهُ على الاكثر لفيف من السودان والعرب يقال لهم السواحلية . ويقطنون ايضًا في بعض جزائر بازاء الساحل مثل جزيرة بمبا المشهورة بخصب تربتها ووفرة باتاتها وجزيرة زنزيبار وهي اكبر تلك الجزائر واكثرها نجاحًا وفيها مقام والي البلاد ومدينتهُ المسماة باسم الجزيرة حديثة العهد وكان يبلغ عدد سكانها في اوقات رواج التجارة اكثر من خمسين الفًا وذلك لانها سوق افريقية الشرقية يقصدها العرب والاوروبيون وتجار الهند لتبادل الاصناف الافريقية والاجنبية

وازقة هذه المدينة ضيقة متعرجة وقد عمل لها الاوروبيون مجاري للقاذورات فصارت نظيفة سليمة الهواء الا ان ازدحام المنازل في وسطها سبب لقلة النظافة وبيوت العرب فيها من الخارج بيضاء كالثلج وكلما كان البيت كبيرًا كانت مسامير ابوابهِ كبيرة واقفالهُ ضخمة ودلّ على عظمة صاحبهِ وفي داخل الباب الاكبر كتابة بصفة طلسم تقيهم المساوئ ومن خارج سلسلة حديد لمنع اللصوص وكل المنافذ صغيرة كانت او كبيرة مشبكة بالحديد

وقرب وسط المدينة من جهة البحر حصن لهُ اسوار مشرّفة وابراج مستديرة وامامهُ عشرون مدفعًا قريب بعضها من بعض جدًّا حتى لو اطلقت سقط الحائط الموضوعة عليهِ فلو حاول زورق واحد اخذ القلعة المذكورة لما عجز حتى قيل ان رجلاً واحدًا اميركيًّا دخلها بسيفهِ لتخليص احد رفاقهِ ولم يستطيعوا دفعهُ . وفي داخل القلعة السجن الوحيد في البلد ولا تضييق فيهِ على المسجونين وليس في المدينة شيء من الابنية التي تستحق الذكر

وعلى الساحل تجاه الجزيرة اسواق التجارة القديمة التي صار اكثرها مدنًا ناجحة في زمن البرتوغاليين منها ممباس وتنغا وبنجاني وبجاموبو . واما ممباس فاشتهرت بغناها وتجارتها سنة ١٣٢٠ وافتتحها البرتوغاليون سنة ١٥٠٥ ثم اخذها العرب سنة ١٦٩٨ وبعد ذلك صارت لامير زنزيبار وهي مبنية على صخر مرجاني قرب البرّ وفيها آثار كنائس قديمة وحصن برتوغالي كبير كثير

محاهل

الابراج المستديرة والقباب المحاطة بالاشجار وعلى البرّ بازائهِ رياض انيقة متسعة والى شمالي ممباس على بضعة فراسخ قرية ربّاي ميبا التي بنى فيها المرسلون الانكليز منزلاً جميلاً ثم هجروه لعدم نجاحهم في مقاصدهم

واما تنغا فهي قرية اهلها نحو خمسة الآف حولها غابات من النارجيل والكرنب قائمة على هضبة تشرف على البحر وهي نقطة ارتحال القوافل التي تذهب شمالاً الى بلاد ماساي . وبنجاني بلدة اخرى على مصب نهر باسمها وهي بين تنغا وزنزيبار في موضع انيق نضر وفي شماليها غابات النارجيل وجنوبيها مرتفعات الشاطىء . فتظهر من داخل الوادي الجبال الشاسعة الزرقاء ومن الجهة الاخرى البحر الفسيح وعلى ضفة النهر بين تلك الغياض الكثيفة منائر او شبه مراقب تجعل لذلك الوادي شبهاً بمضيق البوسفور . وابنية البلدة اكواخ من القصب لكن فيها بعض بيوت مبنية بالحجر ويكثر النمر في الغابات المجاورة لها وكثيرًا ما يقتحم المنازل . وفي النهر كثير من التماسيح لاتزال تخطف الاولاد الذين يدنون من ضفتهِ . وعلى ما تقدم صفة بجاموبو وكلوا وهما الى جهة الجنوب



الفصل الثاني

مجرى سفر برتون وسبيك

في ٣ كانون الاول سنة ١٨٥٦ كان خروج برتون ورفيقهِ من بمباي وكانا قد تعوّدا استقراء الاراضي الافريقية وفي عزمهما هذه المرة ان يتوغلا في داخليتها . فقابلا ساحل زنجبار في ١٨ منهُ فرأى برتون منظرًا عجيبًا وصفهُ وصفًا جميلاً .

ودخلا جزيرة اسمها تمباتو يقال لاهلها الموحدون وعندهم كثير من الخرافات الوثنية ورأيا ايضًا جزيرة ببا التي يدعوها العرب جزيرة الزمرد وفي ٢٠ منهُ القيت المراسي امام مدينة زنزيبار فاستقبلهما هامرتون قنصل انكلترا وترحب بهما كثيرًا وكان رجلاً صاحب حمية واقدام وبهمتهِ كُفّت التعديات عن الاجانب هناك واخبر برتون ان حاميتهم كان اميرًا اسمهُ سعيد وقد توفي منذ عهد قريب فاسف عليهِ الاوروبيون جدًّا وكان فصل الشتاء قريبًا ايضًا فاشار عليهما ان يتربصا بضعة اشهر ويتجولا في سواحل البلاد . فقبل برتون رأيهُ وعزم على التطواف في السواحل فاستصحب دليلاً من العرب يقال لهُ سعيد ابن سالم وكان فتىً وديعًا بخلاف اهل البلاد . وركب هو وسبيك فلكًا عربيًا وفي ١٦ كانون الثاني سنة ١٨٥٧ ارسيا في ممباس فرأيا الناس افواجًا على الشاطئ ينظرون اليهما ويسالونهما اسئلة مختلفة ونساء السودان يغتسلنَ في

البحر والاولاد يتراكضون على الرمل وهم يصيحون «مُزنجو مُزنجو» اي رجل ابيض

فاقاما مدة في ممباس مضيا بها لزيارة المرسل الانكليزي ربمان وكان قد تعوّد هواء البلاد وجرّبته السياحة في الداخلية فافادهما افادات مهمة . ثم عادا الى تنغا وبنجاني واخذا يتاهبان للرحيل وركبا نهر بنجاني ليصلا الى قرية فوجة حيث مقام السلطان قِمويرِ ويتوجها الى اوسمبارة . فمشيا في النهر اياماً وهو هادٍ رائق عريض عند مصبهِ الآن فيهِ بعض شلالات . قال برتون وكان تقدمنا بطيئًا متعبًا لكن لذيذًا بحسن المناظر وكنا نرى فرس النهر يبرز راسهُ من الماء وينظر الينا نظرًا وحشيًا ثم يغوص ونوعًا من التمساح قبيح المنظر هائل المخالب غائر العينين يمشي على وحل الشاطئ ويقف ناظرًا الينا كالجذع المدَّد . والقرود تتواثب في اعالي الاشجار والرجال والنساء يصطادون السمك بشباك خشنة وخضرة الاشجار من الاحوى الى المصفر والمحمرّ تكسو الضفتين ومن جملة الشجر نخل قصير غليظ الجذع جدًا يسمونهُ نخل الشيطان لهُ سعف ضخم كفخذ الانسان طولهُ نحو ٢٠ ذراعًا ومن وسط البساط السندسي تحت الاشجار ترتفع زنابق بيضاء كرقع الثلج ومع ذلك فالبلاد قليلة السكان لا يلوح للناظر الا آثار قليلة من الناس ولا يسمع غالبًا الا صياح القرلّى (نوع من الطير) وحفيف الاشجار بالنسيم العليل

وعند الغروب بلغا صخرًا قائمًا في وسط النهر ابيض عليهِ اشجار قديمة يسميهِ الاهالي بير واسين ويروون انهُ كان شيخًا عربيًا شريف الاصل تحت يدهِ جماعة من المؤمنين فهجم عليهم هناك البرابرة وهزموهم فطلب الشيخ ان تنشق الارض وتبتلعهُ لشدة حيائهِ من الهزيمة . ولا يسمحون بقطع شي من الاشجار التي عليهِ . وان الاهالي يذهبون الى هناك لزيارتهِ ويطبخون وياكلون ولا يلحسون اصابعهم خوفًا من الارواح الشريرة المستمرة طائفة حولهُ ولا يمرّ حرس امير زنزيبار من هناك الا ويطرحون في النهر شيئًا من ورق الشجر والبارود

والرصاص

وفي اول الليل بلغنا قرية ذات ادغال كثيفة فنزلاها وترحب بها الناس وباتا تلك الليلة في غابة حسنة على ضفة النهر وفي نصف الليل ركبا الفلك وتقدما الى قرية شوغواي وهي مركز البريد موقعها بين الجبال تشرف على العقبات المودية الى اوسمبارة وفيها جماعة من الحرس السلطاني. وحاكمها الملقب بالجامدار احسن الالفتات اليها واصحبها برهط من الحرس وجماعة من العبيد لحمل الاثقال لكن لم تكن الجنود حسنة الطاعة على الطريق فبعد عناء ومضض وصلا الى قرية اسمها فوهوداي على الضفة اليمنى من النهر والاشجار حولها مشتبكة كثيرة جدًا وحولها حاجز حصين لاتقاء الوحوش واللصوص واهلها كلهم سودان فلاحون منازلهم اكواخ صغيرة بين مربع ومستدير والماشية تسرح حولها من بقر وماعز وغنم ونحو ذلك

واستمر سيرها في مسالك صعبة مستوعرة تحت امطار غزيرة والقرى منثورة على الطريق واهلها يستوقفونها في كل وقت ويسالون اسئلة مختلفة لانهم هناك شداد الرغبة في الاطلاع على الاخبار الجديدة

قال برتون فلما انتهينا الى ارفع مكان من طريقنا تعجبنا اذ لم نرَ نجدًا وما وقع نظرنا الاعلى قارّات مستديرة مخروطة خضراء من الكلا وفيها مسالك ضيقة حمراء التربة والاشجار كاسية اكثر سفوح الجبال وفي الوهاد مناقع تشقها سواقٍ صغيرة والى جهة الشمال الغربي جبال كبيرة الى منتهى البصر وكنا حينئذٍ على علو ١٢٠٠ متر عن سطح البحر . وبعدما تقدمنا نحو فرسخ عطفنا في عقبة فراينا امامنا عدة اكواخ مخروطية فكانت هذه قرية فوجة فاطلق الجنود بنادقهم فخرج الناس من منازلهم ومضوا بنا الى منازل الغرباء واقمنا ننتظر اذن السلطان بمواجهته وكان حظنا في لقائهِ متوقفًا على خاطر المجنجا وهو لقب رجل لهُ في تلك الارض سيادة. خوري وعرّاف وطبيب فالكل يهابونهُ شديدًا . ومثل هذا الرجل كثير في انحاء افريقية ولاسيما الوسطى ولهُ في كل مكان لقب خاص

ومن غريب زعمهِ في الاواسط انهُ يستمطر السحاب . والمجنجا هو الذي ينضح على الغريب دمًا او نحوهُ بواسطة ذيل بقرة وذلك اذا كان الغريب غير معروف وهو الذي يتفل للمحتضرين ويكل نفوسهم الى الله وهو الذي يشرّد عن المرضى الارواح الشريرة وهو الذي يضع على العاج الذي يرسل الى السواحل سمات سحرية تقيهِ من كل عارض وهو الذي يكشف الدسائس المزعومة عندهم لايقاع الوالي في الامراض ويعاقب اصحابها بان يبوسوا حديدة محماة فاذا كانت التهمة باطلة يزعم ان الحديدة لاتوذيهم ولهُ غير ذلك من الاعمال. فهذه قوة المجنجا العجيب الاَّ انهُ يكون مع الغريب لطيفًا ويمكن استرضاؤهُ بتقديم شيء من التحف فيلقي على الغريب عنايتهُ

قال ثم ادخلونا الى منزل الملك وهو في حضيض اكمة على بعد قليل من القرية وكان نائمًا فاستوى جالسًا عند دخولنا واجلسنا على اسكملات صغيرة . وكان هرمًا نحيلاً جدًّا ليس في راسهِ شعرة ولا في ذقنهِ ولا في فمهِ سن . احمر الحاجبين ابرص اليدين والرجلين يلبس طربوشًا وسخًا وجبة رثة من جوخ وفوقها رداء قطني مبطن وتحتهُ طنفسة عجمية بالية وليس في منزلهِ شيء يمتاز بهِ الاَّ وجود خواصهِ يتحدثون فيما بينهم وبعضهم يروّح لهُ ومع كل واحد قصبة طويلة فيها غليون من العاج . واخبروا الملك اننا نفحص النجوم والشجر والحجر فطلب الينا ان نركب لهُ دواء يعيد اليهِ صباءهُ وقوتهُ فاجبتهُ اننا تركنا كل عقاقيرنا في بنجاني فقال انهُ يسهل وجود عقاقير في جبال بلادهِ . وبعد رجوعنا الى ماوانا ارسلنا اليهِ هديتنا فارسل عوضها عجلاً ظريفًا وسلة مملوءة من خبز البلاد وشيئًا من الموز الاخضر مغموسًا بمصل اللبن

واسم هذا السلطان قمويرا اي اسد الرب وهو مستبد الحكم يبيع رعاياهُ عبيدًا لتجار العبيد وياخذ لوفر نصيب من الهدايا ونحوها مما ينال الاهالي من الاجانب ولهُ حرس مولف من اربعمائة جندي كلهم اصحاب بنادق ولهُ حق ان يتزوج ثلثمائة امرأة لكل واحدة منزل وخدم ولهُ تسعون ولدًا صار اكثرهم

مسلمين وبقي هو وثنيًا

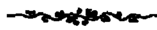
وقرية فوجة قاعدة بلاد اوسمبارة اهلها نحو ثلاثة آلاف نفس والاكواخ هناك مستديرة كما هي العادة في كل افريقية الوسطى من حدّ سوار الى تمبكتو . واهل اوسمبارة يختلطون بالعرب فلونهم اسمر وهم صغار الاجسام اشداء يحلقون رؤوسهم ويمشون حفاة ويعلقون طلاسم في رقابهم وكعوبهم وايديهم ويلفون كساء على احقائهم ويتمنطقون بحبل يعلقون به سكينًا ولا يخرجون من مكانهم الا ومعهم الغليون والقوس والنساء يتحلّين بقلائد من خرز ابيض ثقيلة جدًّا ويلبسن قميصًا يعقد تحت الابط ويرسل الى الاقدام ويتعاطين الاشغال البيتية والرجال يشتغلون في الحقول ويرعون المواشي ويصطادون الظباء وغيرها ومن شغل النساء ايضًا الاحتطاب ودق الحبوب بالهواوين . واكل اللبن عندهم نادر واندر منهُ اكل اللحم كما هو شان سائر البرابرة . وابقارهم قليلة الدرّ واوقات درّها غير مرتبة وهؤلاء القوم موصوفون بالجبن والبلَه

ولما كان الجرس الانكليزي لا يستطيع احتمال البرد اضطر الجماعة الى الرجوع فاسف الملك لانهُ فاتهُ برحيلهم الدواء المعيد الشباب . ففي ٢٠ شباط وصلوا الى شلالات النهر ثم بلغوا شوغواي . وبعد وصولهم الى بنجاني اصابت برتون وسبيك حمّى شديدة فركبا سفينة الى زنزيبار بعناء عظيم .

وهذه الحمى سائدة في كل افريقية من بلاد الجزائر الى راس الرجاء ومن سنغال الى راس الفِلَقس ولا ينجو منها احد من الاوروبيين وهي تبتدئ بانحطاط عامّ وثقل الاعضاء وتخدر الدماغ وتقزز شديد ثم يشعر ببرد صعب الاحتمال ووجع في الاكتاف وبعد ذلك تحدث قشعريرات وصداع اليم وحرارة في الوجه واحتقان الاوردة وهي عظيم حتى لا يستطيع المحموم وقوفًا وتغمض العيون من ثقل الجفون واذا اجتهد العليل بفتح عينيهِ يشعر بالتهاب مؤلم ويسرع النبض وتكسو اللسان فروة وتفقد شهوة الطعام ويستولي عطش محرق حتى لا يروى صاحبهُ . والليل اشد الماً من النهار حتى يشتد الهذيان . لكن يحترس دائمًا من

الفصد لان به الهلاك قطعًا . ويجب على السائح ان لايخلو مطلقًا من الكينا ويتخذها في فترات النوَب . فاذا كان سير الحمى خبيثًا تتعاظم الاعراض ويختل العقل تمامًا ثم يحدث تحسين ظاهر ويعقبهُ حالاً فقد الشعور والخمول ثم الموت . واذا كان سيرها حسنًا الى السلامة تتناقص في اليوم السابع ويتحسن اللسان وتسكن الآلام غير ان مدة النقه تكون طويلة وصعبة فيوافق جدًّا تغيير الهواء لكن لايزال العليل يشعر الى مدة طويلة ببعض اعراضها كاوجاع حادة في الفك وانحطاط القوة واضطراب العقل وبعضهم يقضي حياتهُ ولا يشفى تمامًا . غير ان صحة بنية برتون وسبيك وحسن المعاملة بهمة هامرتون مما ساعد على غلبة هذا الداء الخبيث فشفيا تمامًا في بضعة اشهر وكانا في تلك الاثناء يتاهبان للرحلة الكبرى الى البحيرات الداخلية على ما ياتي

الفصل الثالث



سفر برتون وسبيك الى البحيرات الكبرى

في ١٤ حزيران سنة ١٨٥٧ ركبا سفينة لامام مسقاط وبلغا قرية قولاي على مصب نهر قنجاني وهي اول البرّ الذي قصدا دخولهُ فصادفا هناك من الصعوبات ما يصادف كل سائح في تلك الاقطار فكانا قد ارسلا وكيلها سعيد ابن سالم ليستاجر لهما رجالاً ودواب لحمل الاثقال فما استاجر اكثر من نصف المطلوب وكان تجار العرب يخوفون الناس من سكان اواسط افريقية حتى

لايصحبوا الافرنج في رحلاتهم فصعب عليها استئجار جماعة كافية لكن ببذل الدراهم والصبر والشهامة اكمل برتون جماعتهُ وسافر في ٢٧ حزيران وكانت القافلة موافقة من ١٣٠ رجلاً بين سودان وعرب مختلفي الاجناس والاطوار وعلى رئاستهم برتون وسبيك

واهم من يذكر من هذه الجماعة اولاً سعيد بن سالم المار ذكرهُ ومعهُ امرأتهُ واربعة عبيد ثم قهرمان سبيك وصاحب سلاحهِ واسمهُ مبارك بمباي ولهُ صفات غير عريقة في سلالتهِ السوداء . وخادم آخر لهُ اسمهُ موني مبروكي وهو فظ الطباع شره النفس بغيض الخَلق والخُلق متطرف في كل اعمالهِ شديد الحرص على ما بيدهِ وكثير الطمع في ما لغيرهِ . ثم خادمان آخران من مولدي البرتوغاليين والسودان في غوا اسم احدهما جينانو والآخر والنتين يوصفان بالجفاء وحب السيادة والسرقة والكذب والشراهة وضعف الطبع لكن كان والنتين قد تعلم لغة السواحلية واستعمال الترمومتر والبارومتر وانواع الطبخ والخياطة وكان جينانو حريصاً على مواساة المرضى جسوراً لايهاب خطراً مقداماً على الاهوال لايبالي بالموت . ثم عشرة من جنود الحرس معهم البنادق والسيوف والتروس والخناجر وكانوا مامورين بحراسة السائحين تحت مسئولية شديدة ورئيسهم الجامدار ملّوك اعور فطن ذو دهاء ومكر . ثم المكارون ونحو اربعين حمّالاً وكانت الاحمال مولفة من ثياب حريرية وقطنية وقلائد من خرز او خزف صيني واسلاك حديد ونحاس يطلبها البرابرة كثيراً

فكان برتون مع مثل هذا اللفيف مضطراً الى شدة تيقظ وحسن تدبير فكان كل يوم ينشط الكسالى ويوقظهم من نومهم ويحث الحمالين والمكارين على الهمة والجنود على التحفظ والسهر ويسكن الشغب ويلاطف الجفاة وهلمّ جراً . وكانت الايام الاولى متعبة والطريق التي سلكوها في وادي قنجاني تمرّ بعدة قرى وتتخلل الغياض والعوسج المشتبك والنباتات الملتفة والارض رطبة من ماء المطر والمصاب فاسد الروائح . فلم يمضِ اسبوع حتى سقط سبيك بثقل الحمى

واصابت برتون بعض اعراضها فبالمشقات والاوجاع بلغا قرية ذيل المهرة حيث قتل السائح ميزان من عهد غير بعيد

وكان ميزان هذا فتىً من ضباط البحرية الفرنسوية فخطر لهُ سنة ١٨٤٤ ان يكتشف البحيرات الكبرى فصوبت الحكومة رايهُ وارسلتهُ الى جزيرة بوربون فمضى منها الى زنزيبار بصحبة القنصل بروشان وكان سلطان زنزيبار قد عقد معاهدة حديثة مع فرنسا. وكان ميزان تلميذًا في مدرسة اللغات وحصَّل معارف كثيرة واتخذ الآت علمية وادوات من كل نوع كلها غاية في الاتقان والظرف فكان لقلة خبرتهِ يكشفها امام اهل افريقية فيطمعون فيها لما لها من البهاء واللمعان لان اكثرها ادوات نحاسية مذهبة او فولاذية مجلوّة صقيلة ومن الجملة تفاحة نحاس مذهبة كانت في راس عمود خيمتهِ ووجدت بعد حين معلقة في عنق الذي قتلهُ

فلما وصل الى زنزيبار شاع الخبر بكثرة عن مطامع فرنسا وتحدث الناس بمقاصدها في وضع قدمها في تلك الاقطار وكان التجار الهنود الذين بيدهم زمام تجارة السواحل كثيري الحذَر شديدي المكر يشيعون الاراجيف عن الامم الداخلية ويوهمون الناس مخاوف كثيرة . وقضى ميزان في زنزيبار شهرين يتعلم اللغة السواحلية . وقبل ان خرج في رحلتهِ ساح ثلاث مرات في السواحل المجاورة حتى تمت لاعدائهِ الفرصة لنصب مكايدهم . ولم يحسن ملاطفة العرب الذين يحمونهُ في طريقهِ من الطوارق بل استصحب رجلاً من اهل اونيا موازي ولزيادة نحسهِ رفض استصحاب الحرس الذي عرضهُ عليهِ السلطان ليسير معهُ الى الداخلية وهكذا القى نفسهُ بلا تبصر في ايدي روساء البرابرة الجفاة

وعند انصرام فصل الشتاء سنة ١٨٤٥ بلغ بجاموبو وهناك صرف الحرس الذي كان معهُ وعددهُ اربعون رجلاً من اصحاب البنادق وتقدم وحدهُ في الداخلية قاطعًا نظرهُ عن نصائح رفيقهِ الاونياموازي ولم يبقَ معهُ من الرفاق

الا رجل من مادكسكر اسمهُ فردريك ورهط من الحمّالين . وخطر لهُ في طريقهِ ان يزور فازي مازُنجرا رئيس واقمبة وهي قسم من اوزارومو . وكان مقام الرئيس المذكور في قرية ذيل المهرة فرحب به واظهر لهُ الودّ رياء فانخدع ميزان بظواهر ملاطفتهِ وقضى عندهُ اياماً بالسلام والانس حتى اطمأَن قلب ميزان

ففي ذات يوم قال لهُ الرئيس انك ارسلت تحفاً الى جماعة من الرؤساء . وطال بهِ الملام حتى استشاط غيظاً وادّى بهِ الحنق والحقد الى ان قال لهُ وانت تموت الآن في مكانك . ثم اشار اشارة فانقض على ميزان جماعة من البرابرة وبايديهم عودان كبيران فاما فردريك فحمتهُ امرأَة الرئيس فصاح ميزان ان يلجأ اليها فيخلص فلم يفعل واخرجت المرأَة خارجاً ثم ربطوا يدي ميزان باحد العودين ورجليهِ بالآخر فصار مشبوحاً بينهما فحملوه الى تحت شجرة كبيرة خارج القرية وصاروا يغنون اغاني الحرب ويضربون الطبل وتقدم الرئيس مازُنجرا وصار يقطع اطرافهُ شيئاً فشيئاً وهو يسالهُ اين خبأ تحفهُ فلا يجيبهُ بل يطلب الى الله ان يغفر ذنوبهُ السابقة ويقبلهُ في احضانهِ ويذكر اسماء الذين نصحوهُ فابى اتباع رايهم . وراى الرئيس ان سكينهُ تثلمت فقعد يحددها على حجر وعاد الى عملهِ الفظيع واخيرًا قطع راس المسكين كأنه حمَل للذبح . وعاد يسال الذين يحرسون امتعتهُ عن مكانها ويحاول ان يخدعهم ليسلموا اليهِ شيئاً منها

وكان فردريك قد فرّ عائداً الى زنزيبار واخبر القنصل بروشان بالحال فسنة ١٨٤٦ وصلت سفينة حربية الى زنزيبار لطلب قتلة ميزان وارسلت الى الداخلية مئتي رجل بالبنادق للحاق الرئيس الظالم فلم يجدوه لانهُ هرب وامعن في الاختفاء وكان ضميرهُ لايزال يوبخهُ بعنف ويرى في النوم روءى هائلة حتى اختلّ وعاش بقية ايامهِ مجنوناً ذليلاً حقيرًا

وبعد ان وقف برتون على هذه الاخبار رحل برفاقهِ من ذيل المهرة

وبلغوا نهر مجيتا فاجتازوهُ ودخلوا مقاطعة خوطو وهي ارض وبيئة لكن يكثر تردد القوافل اليها وقاسى الجماعة فيها من المشقات شيئًا كثيرًا . لان الطريق الى مسافة بعيدة بين نباتات عالية تندى بالرطوبة الى نصف النهار والوحل لزج مزلق كثيف فيهِ كثير من اصول النباتات ثم دخلوا بعد هذه الغياض ارضًا ناشفة مشققة بالحرارة كثيرة الحشيش اليابس . وثلاث مرات اجتازوا مناقع فسيحة جدًّا كانوا يغرقون فيها الى الركبة في الوحول والمياه فقضوا عناء عظيمًا . وصارت الامراض تستولي عليهم ومما زاد عذابهم ان حمير افريقية كثيرة الجموح والعثار والكبو والشرود عن الطريق فحيرت اصحابها وضيقت صدورهم وسقط سبيك مرتين عن دابتهِ لسوء مسيرها

وفي ٢٤ تموز خرجوا من قرية دثومي ودخلوا ارضًا يتعاقب عليها المطر وشدة حرارة الشمس وكلها هضاب متوالية خبيثة الهواء لا يسكنها الناس ولا فيها زرع وهناك تبتدئ ادغال افريقية المختلط فيها الشجر والعوسج والعليق والاعشاب المتكاثفة المشتبكة اشتباكًا عجيبًا حتى لا يرى السائر ما امامهُ على مسافة ١٠ خطوات لشدة التفافها . والارض هناك وحلية سوداء مكسوة بالاشواك او الاعشاب التي علوها نحو عشرة امتار وورقها في عرض الاصبع لشدة نموها وكثيرًا ما تعترض هذه الاشياء في الطريق فتسدهُ وتخفي لدى السابلة . والرطوبة سائدة هناك ترتفع منها ابخرة كريهة كان هناك جيفًا منتنة . والجوّ مع ذلك لا يزال اغبر تتكاثف فيهِ الغيوم فتضربها الرياح وتمزّقها وتنصبّ منها سيول المطر بعنف شديد . فالذي يكون في تلك الارض يشعر بسقوط قوتهِ وتلاشي اعضائهِ وخمول عقلهِ ونحو ذلك مما تكره معهُ الحياة . وبعد ذلك ترى بعض اكواخ لامة حقيرة فقيرة ساقطة جدًّا سودان ابدانهم هزيلة جلودهم قاحلة ملابسهم بالية يكثرون من المسكرات . فهذه حالة افريقية الشرقية من خوطو الى اوزاجارا

فلما بلغوا زنجوميرو مكثوا فيها من ٢٥ تموز سنة ١٨٥٧ الى ٧ آب وهي

قرية حقيرة كثيرة الامراض في وادٍ وبيء رطب لكن فيها محط القوافل وملتقى الطرق التجارية . ومن ورائها ترتفع الارض بسفوح منحدرة جرداء الى ان تنتهي بنجد افريقية الوسطى فيصير الهواء طيبًا

والسودان الذين في الاقطار المار ذكرها كالوازارامو والواخوطو لهم عادات واخلاق كسائر سودان افريقية الوسطى الاَّ في بعض احوال والوانهم من الاسمر الى الاسود الحالك والوشم بينهم شائع ويجرحون وجوهم ثلاث جراحات من زاوية الفم الى قاعدة الاذن ويصنعون من المغرة ودهن الخروع مرهما يدهنون بهِ شعرهم ويعملونهُ حلقات وخصلاً مختلفة الاشكال وعيون الوازارامو مائلة قليلاً وانوفهم مفلطحة عريضة وشفاههم ضخمة بارزة وذقونهم نابتة فيها شعرات خفيفة ولباسهم ثوب قطني يستر النصف الاسفل يصبغونهُ بلون اصفر وسخ كلون تربة بلادهم ويلبسون اساور وقلائد زجاجية ويعملون من الصدف صفيحة لجباههم او يعلقونها في اقفيتهم وقد يجعلون في معاصمهم اساور من نحاس او قصدير . وللامتين المذكورتين اي الوازارامو والواخوطو حلية خاصة يسمونها مجويكو وهي قلادة عريضة من اللؤلؤ والخرز الاحمر والاصفر والاسود والابيض . والرجال لا يخرجون الا بسلاحهم وهو البنادق والرماح والسهام المسمومة والسيوف والخناجر الطويلة يصنعونها بايديهم من حديد يشترونهُ من القوافل

واكواخهم مستديرة يعملونها من اوتاد يغرزونها في الارض ويشدّونها بالطين واغصان الخيزران ويعملون لها سقفًا مخروطًا

ولهم عادتان ممتازتان توجدان ايضًا عند بعض امم الداخلية . الاولى الاخاء ويقولون لها «ساري» وذلك انهم يتحالفون على المصافاة والتعاضد لاحتياجهم الى معاونة بعضهم بعضًا في اكثر الاحوال . والاخاء عند الوازارامو يقصد بهِ ايضًا اتحاد الصوالح وحسم الخصومات وحماية الضعفاء من تعدي الاقوياء . ولا يكون الاخاء الا بين الرجال البالغين وطرق القيام بهِ مختلفة باختلاف القبائل

فعند الوازارامو والواخوطو مثلاً يجلس الرجلان القاصدان الاخاء على جلد حيوان الواحد بازاء الآخر ويمدان ارجلها متداخلة بعضها ببعض ويضعان قوسيهما والسهمين على الافخاذ بشكل صليب وياتي رجل ثالث ويهزّ فوق راسيهما سيفًا وينطق باللعنة على من ينقض العهد ثم يذبحون خروفًا ويشوونه او يشوون قلبهُ ويانون بهِ للمتآخيين فيجرح كل منهما بطنهُ تحت السرّة جرحًا يسيل منهُ الدم على لحم الخروف ثم ياكلانهِ ثم يهدي كلّ منهما الآخر شيئًا من تحفهِ ويبقيان مرتبطين بهذا العهد مدة الحياة والذي ينقض الاخاء يُقتل او يستعبَد بحسب الظروف التي نقضهُ فيها . وطالما استفاد العرب هناك من مواخاة السودان فينفضون لهم مصالح مهمة

والعادة الثانية التي تستحق الذكر ايضًا هي انهم لا ياخذون لنفسهم شيئًا مما يجدونهُ على الطريق وخصوصًا اذا كان لابناء وطنهم فالذي يجد ضائعًا ويخص بهِ نفسهُ يستوجب القنجنبو اي الموت او الاستعباد . واتفق ان برتون اضاع ساعتهُ على طريق زنجوميرو فاتوهِ بها ملفوفة بورق النباتات . ومع ذلك لايكون هذا الاعتقاد مانعًا عندهم للسرقات

ولما تجاوز الركب زنجوميرو وبلغوا النجد انقلب الحال بهم حالاً فصار الهواء طيبًا والجو صافيًا وزالت الامراض كانها رُقيت في الحال . لكن لم تطل لهم السلامة فانهم بعد مدة قصيرة دخلوا غياضًا وادغالاً ومناقع كالتي بارحوها اولاً فذاقوا العذاب الشديد فضلاً عن الخصومات التي كانت متواصلة بين جنود الحرس وبعض الركب وقل زادهم فاكلوا ما لا يطاق اكلهُ وفسد الهواء واصابت برتون وسبيك حمى خبيثة ودخلوا معبرًا من اشد الطريق هولاً يصلون منهُ الى نجد اوجوجي وراء جبال روهيبو

قال برتون بينما نحن نرتعد من شدة الحمى قابلنا شِعْبًا صعبًا في سفح جبل قائم فرايت هذا المسلك كسلم درجها قطع الصخور واصول الشجر وكان رفيقي سبيك ضعيفًا جدًّا حتى كان ثلاثة رجال يمسكون بهِ واما انا فما احتجت

الا الى واحد فصعد الحمالون ذلك المعبر المائل كأنهم قرود يتسلقون جدار هوتة واما الحمر فكانت تعثر في كل خطوة وقاسينا من العطش والسعال والضنى عذابًا اليًا فنمنا مدة وحولنا صراخ الحرب في رؤوس الآكام والناس يزدحمون بسلاحهم ازدحامًا شديدًا . وبعد ست ساعات من هذا العذاب المبرّح بلغنا راس الجبل فانتعشت نفوسنا بالهواء السليم وانشرحت صدورنا بمناظر الخضرة وبهاء الجبال والاودية النضرة

وفي هذه الشقة التي قطعوها باعظم العناء اصابهم ويل آخر شديد الاذى وهو لدغ نوع من النمل احمر ونوع آخر اسود اكبر من الاحمر فالنوع الاحمر يسير كالجيش الكثيف المزدحم ويتعلق بكل ما يعرض له بسرعة عجيبة واما الاسود فطول الواحدة منهُ عقدتان (من الاصبع) وراسهُ ضخم ومنسراهُ متينان جدًّا حتى يمسك بهما الفار والجرذ وهو يحب الاماكن الرطبة وجوار المياه ولهُ اقدام غريب لايهاب شيئًا ولايفرّ من النار ولا الماء الغالي ولدغتهُ تكوي كالابرة المحماة واذا امسك شيئًا فلا يتركهُ بالقوة مطلقًا وهو عدوّ النمل الابيض المشهور بافريقية ويسرّ بالاكل منهُ ولهُ عدوّ ايضًا من نمل احمر يسمونهُ هناك بما معناهُ اللادغ المميت لان عضتهُ مؤلمة جدًّا . واما الذبابة المسماة صيصي فقد ذكرناها في القسم الاول من هذا الكتاب وهي منتشرة من حد ضفاف النيل الى ضفاف زمبيز

وبلاد اوجوجي التي وصل اليها الركب بعد ان اجتازوا شعب اوزاجارا ممتدة في نجد فسيح على مسافة واحدة من الساحل وواويا بمبي وسكانها ثلاث امم الوازاجارة والوحلية والواجوجو والقمح يكثر في سهولها وترى الماشية في الهضاب حيث يكثر الكلأ لكن يسطو عليها لصوص واروري . واهل البلاد يبيعون التجار عسلاً ولبنًا وبيضًا وسمنًا وكلها انواع غير طيبة ويكثر فيها دجاج فرعون ومن حيواناتها نوع من ابن آوى ابيض ناصع كالفضة وفي سهولها الفيل والزرافة . وهذه تعمل من جلدها التروس وعند الخيل ولحمها لذيذ غير ان

وجودها قليل لكثرة صياديها

وهواء اوجوجي معتدل نافع للصحة واثر في جماعة برتون تاثيرًا حسنًا جسدًا وعقلاً فاجتازوا بسهولة الارض الاكامية الممتدة من اوجوجي الى التخم الشرقي من اونيا موازي . قال برتون بعد اربعة اشهر ونصف من سيرنا من الساحل وصلنا الى بلدة قازة وهي مركز اخص للعرب وقاعدة اونيا نيمبي التي هي اهم مقاطعات بلاد اونيا موازي . فاحسن العرب لقاءنا بخلاف ما قبل لنا وكانوا لابسين الملابس الحسنة لم نرَ مثلها عند غيرهم وقدموا لي كل ما طلبت ولو بالاشارة ولم يقبلوا ثمنًا لشيء وحسبوا عرضي لبدل ما اتوني بهِ اهانة . وكان اغنى رجل هناك تاجر مجرّب يقال لهُ سناء بن امير جمع ثروة من صامت وناطق وهو اغنى اهل افريقية الشرقية وكان قد اصيب بصحتهِ فاضطر ان يقيم في قازة ولهُ من المخازن المملوّة بضائع بين ثياب وعاج وحليّ ومن العبيد والماشية ونحو ذلك ما يحسب ضيعة براسها . وواسانا احسن المواساة وقدَّم لنا حمّالين وتكفل بتاهيب بضائعنا وهيأ كل ما يلزم لرحيلنا وافادني بحديثهِ المفيد امورًا كثيرة فانهُ كان قد ركب بحيرة تنغانيقا ودخل بلاد قراجوة واوجندة شمالي هذه البحيرة وعرف احوال تلك الامم وعاداتهم ولغاتهم وكان كثير الاطلاع ولهُ ذاكرة عجيبة وذكاء عظيم وفصاحة وذلاقة لسان ولطف عشرة حتى عجبت منهُ

ومدينة قازة محط الرحال للتجارة في افريقية الشرقية واقعة في قطر خصب سليم الهواء ومنها تتشعب الطرق الى زنزيبار شرقًا وبحيرة نيانزا ومملكة اوجندة شمالاً وبحيرة تنغانيقا وبلاد اوجيجي غربًا واورروري جنوبًا . وابنيتها حسنة موافقة لراحة السياح وقد استوطنها العرب منذ سنة ١٨٥٢ فعاشوا عيشًا هنيئًا رغدًا وترسل اليهم النفائس من زنزيبار وفي خدمتهم كثير من العبيد والحشرات وافرة جدًا في بيوتهم

وبلاد اونيا موازي طيبة التربة حسنة الفلاحة كثيرة القرى جيدة المراعي يكثر فيها البقر المسنم والماعز والغنم والعيش هناك لذيذ لصحة الهواء وحسن

المناظر وكثرة العصافير المغردة وبقر الوحش واسباب الملاهي . وللنساء من العجوز الى الصبية عادة التدخين بالغليون يجدنَ فيها لذة كبيرة ويخرجن الدخان من انوفهنَّ ومن وقت الى آخر يرطبنَ افواههنَّ بالذرة الطرية او نحوها ويتحدثنَ اذا تركن الغليون احاديث مختلفة

والحيوانات في اونيا موازي لاتختلف عن التي في اوزاجارا واوجوجي ففي الادغال السهلية والجبلية اسود وقرود ونمور وضباع وهررة برية.وفي السهول الفيل والزرافة والجاموس وبقر الوحش . وفي الانهار التماسيح وفرس النهر . ومن القرود نوع يقال لهُ نياني او الكلبي الراس وهو في شمال البلاد منهُ احمر واصفر واسود وكلهُ كاسر . ونوع آخر يسمونهُ مبيجا عنقهُ كثيفة الشعر وشعرهُ طويل اسود لامع وعرفهُ ابيض وهو شديد الاعتناء بنظافة جسدهِ ويقول العرب بتاكيد انهُ اذا لحقهُ الصيادون يمزق فروتهُ شذر مذر حتى لا يستفيدوا منها شيئًا لانهم يصطادونهُ لاجلها واكثر مقامهِ الاشجار يقتات من ثمارها او اخلافها الطرية . والعرب يذكرون ان في جوار اونيا نيمبي نوعًا من الكلاب البرية ارتفاعهُ نصف متر ولهُ فروة قاسية سمراء داكنة وذنب طويل كثيف الشعر ويعيش طوائف كل طائفة من ٣٠ الى ١٠٠ وهو لا يعوي ويهجم على الانسان والحيوانات الكبرى

وسكان اونيا موازي يظهر انهم انموذج السودان في تلك الاقطار لونهم اسمر قاتم هيئتهم ابعد عن هيئة اهل آسيا من هيئة اهل السواحل وتنبعث من ابدانهم رائحة كريهة جدًّا ويرسلون شعورهم حتى يصير طولهُ اقل من فتر ويبرمونهُ من الوراء خصلاً صغيرة لولبية ويجمعونهُ على الفود كقدماء المصريين ولحاهم قصيرة خفيفة وليس في العارضين شعرة البتة ويقتلعون شعر شواربهم واهدابهم وهم اشداء طوال الاجسام شجعان خشان الطباع . وشارة النسب عندهم ثلاثة جراح تمتد من الحواجب على الصدغين الى قرب الذقن وتارة تكون جرحًا مثلث الخطوط يمتد من الجبهة الى الانف والرجال يلونون هذه الخدوش

بالاسود والنساء بالازرق ويضفن على ذلك خطوطاً صغيرة تحت الاعين ويفرقون بين الثنيتين بسكين حتى تصير بينهما من الاعلى زاوية فارغة وكلهم يحاولون تطويل آذانهم

ولباسهم جلود الحيوانات الا الرؤساء والاغنياء فانهم يلبسون القطن والاولاد يبقون عراة والصبايا تبقى صدورهن مكشوفة والرضع تحملهم الامهات على ظهورهن. واما الحلي فيرغبون منه اللآلئ الكاذبة ولاسيما الحمراء والبيضية الشكل الكبيرة ويعلقون في قلائدهم خرزاً وصدفاً واسنان فرس النهر والذي لحيته كثيفة يعلق بها لؤلؤاً . وفي اصابعهم يجعلون خواتم ضخمة من نحاس وفي معاصمهم اساور من اسلاك نحاسية مجدولة ويعلقون ايضاً اجراساً صغيرة من نحاس وانابيب من عاج . وفي الاسفار يتوشحون بقرن جدي واذا اقاموا يبدلونه بقرن صغير فيه طلاسم من بركة المجبا

ومن عاداتهم انه اذا قرب وضع المرأة تذهب الى غيضة وتلد ثم تحمل الطفل ملفوفاً بجلد ماعز وتحمل ايضاً حملة من الحطب وتاتي الى بيتها . وقلما تتم النساء فاذا اتأمت واحدة قتلوا احد التوأمين فتعوض عنه الام بكرنيب تلفه وتخصه بنصيبه من القوت . ومن عاداتهم في الميراث ان تركة الرجل تكون لاولاده من امته لان اولاده الشرعيين لهم اقرباء فلا يهملونهم . ويربون الولد على رعي المواشي فاذا بلغ السنة العاشرة من عمره سمي راعياً معفى فيتخذ لنفسه كوخاً ويزرع قطعة من الارض تبغاً وقد استقل

وعادة البنات ان يبقين في بيوت آبائهن الى ان يدركن سن الزواج فيجتمعن لمات كل لمة اثنتا عشرة ويبنون لهن كوخاً منفرداً وهناك يعشن على هوى النفس ويبتذلن لمن يختار . فليس ثم علاقات عائلية صحيحة

وفي كل قرية مجلسان كبيران احدهما خاص بالرجال يجتمعون فيه للهو واللعب والمسامرة والآخر للنساء . ويكونان احسن وامتن بناء من سائر البيوت وفيهما النقوش والطلاسم على الباب وغير ذلك من الامتيازات

الفصل الرابع

في ما جرى لبرتون وسبيك بعد ذلك

في ٥ شباط سنة ١٨٥٨ ركب القيروان طريق الغرب قاصدين بحيرة تنغانيقا وكان برتون يشتهي ان يستقريها وفي هذه المرة وصف برتون احوال القوافل التي تتعاطى التجارة الافريقية قال . هذه القوافل التي تجوب شرق افريقية ثلاثة اصناف فمنهم من يكون من اهل اونيا موازي خاصة ومنهم من العبيد المامونين والباقون من العرب وقافلتنا من هولاء على الاكثر لكن الفرق انهُ لم يكن معنا من اهل يوتنا عدد يذكر . فوقت الفجر عند صياح الديك امرت تبعتي الغوانية ان يضرموا النار فلبوا في الحال وشربنا الشاي والقهوة (عند وجودها) واكلنا اقراصاً معمولة بماء الرزّ ونحو ذلك وكان الحرس حينئذٍ يصرفون الوقت بالغناء وهم حول خلقين على نار عظمة يتعللون بالفول المحمص وشرب التبغ ونحو ذلك

وبعد ساعة اخذ الحمّالون يضجرون من الرحيل وكانوا البارحة قد وعدوا بالتشمير صباحاً لكن بعد حرّ النهار فرسهم البرد في الليل ولا سيما صباحاً فشكوا الحمى . وكان كثيرون من القافلة اصحاب كسل وتوانٍ ويلتذون بالتمرّد والعصيان فاذا اتفق ان يكون رايهم الغالب يلتزم السائح الاقامة والاّ فقد يتيسر لهُ حملهم على الطاعة فيصيحون ويصفرون بالشبابات وينفخون

بالابواق ويقولون . هَلا الرحيل . الرحيل . ارفعوا الاثقال احضروا الدواب وهلمّ جرًا . فياخذون في التاهب ويحمل رئيس الحمالة حملتهُ ويرفع رايتهُ . وتكون من جوخ احمر قد خرّقتها الاشواك وهي خاصة علامة الآتين من جهة زنزبار

وبينما يكونون في الطريق تكون جلبتهم مرتفعة ما بين خصومة وغناء وصفير وتقليد اصوات الحيوانات وغير ذلك ويزيد هذه الضجة رجع الصدى من الوهاد المناوحة للطريق . وعند الضحى اذا وجدوا فيئًا يطوي رئيس الحمّالة رايتهُ وينفخ النفير اشارة الى الاستراحة فيضعون الاحمال . واذا استطال المسير الى الظهر يخنق الحرّ اولئك المساكين فيعيون

فاذا كان المساء لجأ كل منهم الى المكان الذي يختارهُ للمبيت ثم يشتغلون في تهيئة الطعام فيلتهم العبيد الطعام التهامًا عجيبًا حتى انهم ياكلون في ساعة قوت اسبوع . والذي ينشطهم قول الداعي . الى الطعام . الى العلوفة . فيتراكضون بحمية شديدة

وعند طلوع القمر يضربون الطبل فيجتمع فتيان القرى المجاورة والبنات حول المكان وياخذون في الرقص . والحركات التي يفعلونها عنيفة جدًّا لكن الظاهر انها لا تتعبهم . وبعد ما يوثر فيهم الكلل ينطرحون على الارض ليتنفسوا نفَس الراحة . ثم يجلسون فياخذون غلايينهم ويترنمون حول النار باغاني خاصة . وبعد ذلك ينامون وقد تسهر النساء الى نصف الليل يشتغلن

وثاني يوم وصلوا الى قرية مسيني من بلاد اوسمبوة التي فيها مسيرهم وفي هذه القرية تمكث القوافل التجارية بضعة ايام فآذتهم الامطار الغزيرة ورطوبة البلاد حتى لم يبلغوا قرية قد شنشري الاّ وقد اوهى المرض قوة برتون وذاق عذابًا اليمًا من شدة الاوجاع في كل جسدهِ حتى قال انهُ راى الموت بعينيهِ ولم يستطع حراكًا وفقد الحس من رجليهِ فلم يكن يشعر الاّ بوخز الابر الكثيرة وخدرت يداهُ خدرًا شديدًا حتى يئس من الحياة وهو بعيد نحو شهرين عن

اهل الصناعة الطبية ولم يتهِ الى غاية رحلتهِ . لكن بعد عشرة ايام استطاع ان يركب حمارًا وقضى في الطريق مشاق لا توصف بين الجبال والاودية والادغال والانهار والحرّ والبرد ونحو ذلك

ثم قطعوا نهر ما لاجرازي الذي يصب في البحيرة المقصودة وتخللوا غابة وبلغوا هضبة يمتد منها النظر الى مسافة بعيدة ثم غير الدليل خط المسير فجأة قال برتون فنظرت في البعد وراء الهضاب في فجوة شاسعة خطًا لامعًا لم اميزهُ لضعف بصري وما اعترض من الاشجار فسالت ما يكون هذا فقيل هذا ماء البحيرة فاسفت اشد الاسف على هذا العناء الذي تكلفتهُ لارى قطعة حقيرة من الماء وعزمت على الرجوع قاصدًا ان ابلغ بحيرة نيانزا لعلي اسلو برؤيتها بعض اتعابي . لكن شددت عزمي وقلت اتقدم مسافة اخرى لارى ما تكون النتيجة فاشرفت بغتة من قمة اكمة على البحيرة المقصودة اي تنغانيقا فانجلى لديَّ منظرها الجليل العجيب فنزلنا في طرق متعرجة بين الهضاب المستوعرة الصلبة الى ان بلغنا البحيرة فرايت بعض شاطئها رمليًا والبعض مكسوًّا بالاشجار والخضرة وهي فسيحة صافية زرقاء بهجة المنظر وتظهر الجبال من ورائها كالسور المتقطع بعضها ازرق وبعضها ملطخ بلطخ بيضاء من الضباب وبعضها مغشيٌّ بالسحاب وتنتهي عند الشاطئ بقارات (اي آكام منفردة) مستديرة ويدخل فيها منها راس مستطيل ياتي من ورائهِ نهر ما لاجرازي ويفيض مياههُ الوحلية في البحيرة. ورايت فيها بعض جزر وحولها عدة قرًى لكل قرية بساتين وزروع حسنة والصيادون يطوفون بقواربهم على سطحها

ونمو النبات هناك غريب واشتباك الاشجار والعشب والعوسج اعجب فلو كان في خلال ذلك ابنية حسنة وقصور وما شاكل ذلك لكان منظر تلك البقعة من الارض اجل وابهج مناظر الدنيا . فابتهج قلبي جدًّا ببلوغي هذه البحيرة الجليلة الشان حتى نسيت الاتعاب التي قضيتها في تلك القفار والمناقع الهائلة وكان كل الناس مسرورين معي حينئذٍ حتى اخسّ العبيد

وموقع هذه البحيرة بين الدرجة الثالثة والدرجة الثامنة من العرض الجنوبي وقرب الدرجة ٣٧ من الطول الشرقي من هاجرة غرينوتش طولها نحو ٣٠٠ ميل انكليزي وعرضها بين الثلاثين والاربعين ماؤها عذب وفيها شيء كثير من انواع السمك لذيذة الطعم وعلى شاطئها الشمالي قبائل الواويرة والوارندي وعلى الجنوبي الواتبة. ومقاطعة اوجيجي حيث وصل برتون وسبيك على شاطئها الشرقي على مسافة نحو ٥٤٠ ميلاً من ساحل زنزيبار ومدة السفر كانت ٢٢٣ يوماً

وفي ١٤ شباط سنة ١٨٥٨ ركب برتون وسبيك وخواصهما فلكا عربيًا من قرية اوقارنجة فاجتاز بهم البحيرة في ثلاث ساعات الى قرية قاولى اكبر قرى اوجيجي فنزلوا ولقوا جمهورًا غفيرًا من السودان محدقين بابصارهم اليهم كانهم منذهلون ومع ذلك يضجون ضجيجًا غريبًا ويضربون الطبول ثم نزلوا منازل الغرباء على شاطئ البحيرة فكانت الرطوبة هناك لا توافق صحة السائحين فلم يتعافيا تمامًا

وبلاد اوجيجي تحسب اخصب بقعة في ذلك القسم من افريقية لكثرة نباتاتها وشدة نموها الطبيعي وكل النباتات التي تحتاج الى شغل في غير اماكن لا يتكلفون لها هناك شيئًا وهناك كل انواع البقول والثمار الافريقية تقصد من الاطراف وهناك ايضًا انواع الحيوانات الكبيرة كالفيل وفرس النهر والتمساح والجاموس وكلها كثيرة العدد ومن الكواسر الضبع والكلاب البرّية الوافرة جدًّا. والطيور المائية تعيش من سمك البحيرة. وتكثر الحيات والضفادع والعقارب والنمل الابيض والاسود والعناكب وكثير من الحشرات الكريهة والهوام فتملأ المنازل حتى يكره الانسان الاقامة معها وزد على ذلك الذباب القتال للبهائم وهو الصيصى

واهل اوجيجي اشداء البنية حالكو السواد وايديهم وارجلهم عريضة جدًّا وحركاتهم عنيفة قاسية ونظرهم حاد وكل اطوارهم في غاية الخشونة والجفاء. والنساء يتصلنَ بالوقاحة ان يدخلنَ منازل الغرباء ويستلبن ما تنال ايديهن

مما يروق لنظرهن . وكلهم يدهنون ابدانهم بالزيت ووجوههم وشعورهم يمرغونها بالمغرة او الحوّاري فيكون منظرهم من اشنع ما يتصوّر ويستعملون ايضاً الوشم والروساء يحبون الثياب الملوّنة ياخذونها من الغرباء باي وجه كان ونساء الاغنياء يلبسن ثياباً زرقاء او حمراء واما الفقراء فيلبسون جلود الحيوانات البرّية ولنسائهم مئزر منسوج من لحاء الشجر . وحليهم قلائد الخرز والعاج والصدف واساور وخواتم فلزية . والسلاح قوس ورماح وقسيّ كبيرة سهامها ضخمة ثقيلة والبنادق نادرة الوجود ولا تكون الا عند الروساء

ومن طبعهم الوقاحة والرقاعة والطمع والتهكم على لغة الغرباء واعمالهم واذا خدموا الغريب خدمة حقيرة يطلبون اجرة فاحشة ولا يحترمون الضيف ولا يراعون جانب الانسانية ويتعودون الشرّ والجفاء من الصغر ويستعملون العض والتخميش كالهررة البرية . ويكثرون من شرب المسكرات والاطعمة الوخمة ولا يبالون بالنظافة .

وكان حاكم قاولي شرساً مستبدّاً جافي الطبع فلقي برتون وسيك منه خشونة عاقتهما اياماً لانه منع كل احد ان يركبهما فلكاً لاستقراء البحيرة . وفي تلك المدة تحسنت صحتهما واخيراً اتجها في قارب الى جزيرة قيوبرة حيث يقيم رجل عربي اسمه حميد بن سليمان فاعطاهما شختوراً يطوفان بها

وقال سيك كانت تلك العاقة مفيدة لصحتي لاني كنت اواظب على الاغتسال والتنزه بالهواء الرطب مساء وصباحاً . ومن عادتهم انهم يضعون في المكان الذي يغتسلون فيه من النهر فروعاً من شجرة خاصة يغرزونها في قعر النهر على مسافة خمسين يرداً من الشاطئ ويجعلونها كالحظيرة ويعتقدون ان التماسيح لا تدخلها لانهم يحسبونها طلسماً

وكنت وقت الظهر آخذ شمسيتي واقصد السوق لاستبدال البضائع وتقام السوق من قبل الظهر بساعتين الى العصر قرب المينا . يبنون بعض اكواخ من اغصان وفروع ثم يقوّضونها كل يوم . ويباع في السوق السمك واللحم والتبغ

وزيت النخل والمسكرات والبطاطة والخرشوف والفول وقصب السكر وكثير من البقول والعاج والعبيد.

وفي ٣ اذار ركب سبيك زورقًا مصنوعًا من جذع شجرة منقور وكان بصحبتهِ عشرون رجلاً فقضوا اول ليلة عند الشاطئ تحت المطر الشديد والنهار بعدها كذلك ثم تقدموا على الشاطئ الغربي من البحيرة وكان الساحل هناك مستوعرًا كثير الهضاب والادغال وهي محيطة بالنقطة الشمالية من البحيرة ومثل ذلك عند مصب النهر وهناك التماسيح وافراس الماء بكثرة كانت تنظر اليهم نظرًا جامدًا وهي تهمهم وتنفخ حنقًا

ثم اجتازوا عرض البحيرة وبلغوا مجموع جزر قرب الشاطئ الغربي اكبرها قيويرة ثم قاسنجة وفايبزية وطول قيويرة خمسة اميال وعرضها ميلان وهي كثيرة الشجر والسكان وتكثر فيها الذرة والبطاطة والطير واهلها يلبسون جلود القرود السود والهررة وغيرها يشدونها بزنار على وسطهم ويجعلون جلد الراس يتدلى من الامام والذنب من الوراء. وهم من التطفل على اعظم جانب فوق خشونتهم. ثم رجع سبيك ولم يتيسر لهُ استقراء الوجه الشمالي من البحيرة فعزم برتون ان يفعل ذلك وقد سمع الناس يقولون ان نهرًا كبيرًا يخرج من تلك الجهة ويتجه شمالاً وتعب جدًّا مع الحاكم حتى اعارهُ زورقين على شروط فاحشة فكان في احدهما برتون والحاكم و٢٢ رجلاً للتجذيف وفي الآخر سبيك وجماعة من النوتية وقصدوا المضي الى سوق عويرة في جهة الشمال الغربي من البحيرة حيث يتجر العرب بالعاج والعبيد. فمروا على الشاطئ الشرقي الى جهة الشمال وكان الساحل كثير الجبال والخضرة ومن مسافة الى اخرى تنصب مياه السهول الى البحيرة من فجوات الاودية النضيرة وهناك منازل حقيرة للصيادين مبنية على شكل خلايا النحل وليس في المنزل الا الثلاث الاثافي وحصير ينام عليه اهلهُ. وهم يجلسون وقت الراحة في ظل الشجرة ويعلقون فيها شباكهم

وعادة النوتية هناك انهم ما داموا سائرين يلازمون الغناء والصفير وضرب

الدفوف فيكون لهم صخب مزعج الّا اذا جاش ماء البحيرة بالريح فيصمتون ولا يحسنون التجذيف وايديهم ثقيلة بحيث يقذف الجذاف الماء الى وسط الفلك فيبال ركّابهُ وكثيرًا ما اشار عليهم سبيك وعلمهم كيف يقوّمون حركاتهم في التجذيف يلم يبالوا وكانوا تارة يجذفون بعنف شديد حتى تسقط قوتهم وتارة يتوانون حتى كانهم يتسلون بتحريك المجاذيف . وتارة يتصادم الفلكان فيتشاتمون ويتهاترون ويقذفون الكلام الخشن المالوف عندهم وفي فترات كثيرة كانوا يقضون الوقت للاكل والشرب والتدخين وكلما بلغوا قرية تقع بينهم الخصومة لان البعض يريدون الوقوف والبعض يطلبون التقدم ويكون رئيسهم جالسًا في احسن موضع من الفلك لايقوم بامر ولا نهي الا نادرًا . فاذا دنا الفلك من الشاطئ يتواثب النوتية من غير ان يستاذنوا . واذا قصدوا المبيت في مكان يتفرقون بعضهم للاحتطاب وبعضهم في طلب الزاد وبعضهم يبنون الاكواخ من اغصان الشجر وسفائف اللحاء على هيئة نصف نارنجة ويسع الواحد خمسة اشخاص الاان ارجلهم تبقى خارجًا . وبالاختصار لم يكن لهم في اعمالهم قانون

قال برتون وفي ١٩ اذار اجتزنا البحيرة وبلغنا الساحل الشرقي من جزيرة اوبواري ثم درنا حول القسم الشمالي من البحيرة واقمنا يومين في الساحل الغربي بين الرياض والخمائل . وكنا نسمع ان الناس هناك ياكلون لحوم البشر فعلمنا ان ذلك ناتج عن شدة الفاقة والكسل في العمل وجهل الزراعة مع ان الارض شديدة الخصب فيلجأون الى اكل الجرذان والزواحف والحشرات ياكلونها نيئة لشدة كسلهم وهذا يدل على انهم لايانفون من اكل لحم البشر نيئًا ايضًا وهم في اسفل درجة من سلم الانسانية ياكلون الجيف وجثث الموتى اكثر مما ياكلون اللحم الحيّ

وفي ١٦ امنه قطعنا فرعًا آخر من البحيرة وبلغنا عوبرة على شاطئها الغربي فوجدنا اهلها اصحاب انس ومواساة للغريب فازدحموا علينا فرحين وسلموا بالاصوات والآلات تسليمًا عظيمًا فكافأهم اصحابنا بحفلة رقص وغناء في حيز

الرزانة والوقار وهكذا بلغنا آخر محطة تجارية من ذلك القطر فراينا هناك العاج والعبيد بكثرة يوتى بهذه البضاعة ونحوها من اواسط افريقية وتبدل بالتبغ والخرز والثياب الاوروبية . وعلمنا شيئًا من الموانع التي تعترض التجار في خرقهم ذلك الحد

وفي ٢٨ نيسان زارنا اولاد السلطان ماروثا الثلاثة وكانوا شبانًا ظرفاء اشداء ولهم رشاقة في الحركة البدنية ونظام في الهيئة والاعضاء وعيون برّاقة واسنان كاللآلئ النقية وفي اعناقهم ومعاصمهم قلائد واساور من عاج فسالتهم عن النهر العجيب الذي يخرج من اعلى البحيرة فقالوا انهُ موجود لكن يدخل اليها وقد راوهُ ووافقهم الحاضرون بشهادتهم

فتعجب برتون من ذلك وكان يظن ان ذلك النهر من جملة ينابيع النيل واجتهد كثيرًا في اقناع رفاقهِ ليتقدموا الى ذلك الطرف من البحيرة فلم يقبلوا وقالوا انهم يخافون من اكَلة لحوم البشر وخشونتهم هناك . فعادوا الى قاولى ووصلوا في ١٣ ايار بين العوارض الشاقة . ومع ذلك افادت هذه السفرة برتون وسبيك في صحتهما وان كانت قليلة الفائدة في مقصدها . وفي ٢٦ ايار بعد انقطاع الامطار خرجا من اوجيجي التي لقيا بها اشد العناء وقصدا المسير في طريق قازة . وبلغاها بعد ٣٦ يومًا بين الهم والكدر من تصرف الجماعة اي الخصومة والنفور والشرود والعناد والعصيان والقلق والشغب وهلمّ جرًّا

وكان من جملة من صحب الجماعة حاكم اونيا موازي وقد تاخر عنهم لانهُ كان قد اشترى امة سوداء فاتفق ان جرحت رجلها في الطريق فلم تقوَ على المسير وراى انهُ مضطر الى تركها فقطع راسها لئلا تكون لاحد غيره

ولما بلغوا قازة اقاموا اياما للاستراحة ولقوا الحسنى من ضيافة العرب ولاسيما الفاضل سناء بن امير . وكان المرض قد اصاب الجميع وعجز برتون عن المسير واما سبيك فكان قد تعافى عند ارادة الرحيل فعزم ان يمضي بجماعة قليلة في الجهة الشمالية من قازة ليكشف خبر بحيرة يسميها العرب نيانزا

ويقولون انها اكبر بكثير من تنغانيقا . فشخص في ١٠ تموز

وكان طريقة في خط شمالي مستقيم في نجد سليم الهواء ارتفاعة عن البحر من ٣ الى ٤ الاف قدم وفيهِ من المقاطعات اونيا نيمبي واونيا ميبوة وو امندة وسلاوى واوسوقوما والارض هناك منها سهول ومنها جبال ومنها وعور ومنها رمال ومنها احراش ومنها مراعٍ وهلمَّ جرًّا واهلها عديدون اشداء

وحينما صاروا في بلاد اوساجاري التقوا بقافلة اخرى آتية من جهة البحيرة فسلم الدليلان احدهما على الآخر تسليمًا استغربهُ سبيك وذلك ان العادة عندهم اذا التقت قافلتان في طريق واحدان يتقدم احد الدليلين الى الآخر ويتناطحان كالكباش حتى يقع احدهما فيضج الناس ضحكًا وترتفع الجلبة ويحيد عن الطريق القيروان الذي غُلب دليلة حتى يمر القيروان الآخر

وفي بلاد مسلالة توجد مناظر طبيعية جميلة ومراعٍ خصبة تسرح فيها قطعان البقر الكثيرة واهلها عدد غفير . وبلاد اوجوجو الواقعة على طريق القاصد الى اوجيجي موصوفة ايضًا بكثرة السكان لكن يكون السودان على جانبي الطريق مزدحمين ازدحامًا عظيمًا حتى لا يمرّ ابناء السبيل الا بجهد لكثرة تطفلهم وذلك لانهم قلما يرون رجلاً ابيض فيدهشون لروءية من يمرّ من هناك من البيض

قال سبيك ولما فارقنا قرية من مقاطعة سلاوى في ٢٧ تموز راينا بغتة عمودًا من الصخر الحبوبي شديد الارتفاع وعند اسفلهِ قطع عظيمة من الصخور فتعجبت من هذا المنظر الطبيعي وكيف وجد بهذه الهيئة في تلك الاقطار . وبعد ان سرنا ثمانية اميال رايت عمودًا آخر اعلى من الاول يتجاوز كل الاشجار المحيطة بهِ . وقد اتخذنا هذين العمودين دليلاً امينًا الى مسافة شاسعة من الطريق لانهما يشاهدان من بعد ثمانية اميال

ولم يزالوا يتقدمون في تلك البلاد الخصبة النضرة الشائقة المناظر الكثيرة السكان والخيرات عدة ايام وفي ٢ آب تجاوزوا قرية ايساميرو وبلغوا هضبة

سماها سبيك سمرْست

قال فلما رقينا قمتها وقع نظري على بحيرة نيانزا الفسيحة الجوانب الجليلة المنظر ولشدة بعد الافق لم اقدر ان اقدّر سعتها ولم ارَ ايضاً طرفها عن شمالي لاعتراض مجموع جزر شامخة سميتها ارخبيل بنغال ارتفاعها عن سطح البحيرة من ٢٠٠ الى ٣٠٠ قدم واما عن يميني فليس الا جزيرة اوقيربوي تكون آخر ما يعترض النظر من جهة الشمال الغربي فهذه الجزيرة وجزيرة مزيتة البعيدة عنها نحو ثلاثين ميلاً تظهران انهما الساحل الشمالي من الفرع الشرقي من البحيرة وكنا نعرف اسم الاولى لان العرب ذكروا لنا البحيرة باسمها والثانية اكبر منها وشكلها كظهر الخنزير. والشجر يكثر في كل تلك الجزائر وتظهر قطع الصخور بين الادغال كالنجوم وتنعكس صورة كل ذلك في ماء البحيرة الصافي فليس اجمل من تلك المناظر الانيقة

ورايت السهل العظيم تحت الهضبة التي كساحليها منفرشاً بالخمائل والحدائق والقرى منثورة فيهِ بين البساتين النضيرة والطرق بينها كانها الماشي في روضة لندن . واول قرية بلغناها قرية موانزة وكانت غاية سفرنا وهي في مرج كثير الزروع حسن الفلاحة

ولكن كل تلك اللذة الطبيعية الحسية لم تقارب لذة فكري بشان الفائدة الجغرافية والتجارية التي طالما اجتهد الناس في الحصول عليها اي تصوري ان هذه البحيرة هي ينبوع النهر العجيب (اي النيل . لان سبيك حاول اظهار كون النيل الابيض ينشق من هذه البحيرة الكبيرة التي اكتشفها)

ولكن لسوءِ حظ هذا الرجل وحظ العلماء حينئذٍ لم يصادف انساً ولا مواساة من حاكم قرية موانزة لجهة طوافهِ البحيرة نعم انهُ احسن ملقاهُ لكن لم ياذن لهُ ان يركب فلكاً ويدخل جزيرة اوقيربوي ولا التطواف في قسم من البحيرة فاضطر ان يكتفي بتقريرات الاهالي وتجار العرب . فذكروا لهُ ان البحيرة ممتدة شمالاً الى مسافة شاسعة جداً حتى قالوا لانهاية لها ويخرج منها نهر اسمهُ قيروبرا

يجري على الصخور جريًا شديدًا متجهًا الى النيل فاستنتج سيك ان هذا النهر هو عين النيل والصحيح انهُ لم يصب في رايهِ. وان على شاطئها من جهة الشرق بلادًا لاتعرف ارضها ولا اهلها . ومن جهة الغرب تتواصل الجبال التي تنصب مياهها الى بحيرة تنغانيقا شمالاً والقوافل العربية التي تسير من قازة لتتجر في مملكة قراغوة ووإجندة تمرّ في بلاد ذات هضاب ووهاد وافرة الزرع والضرع تشقها انهار كثيرة وتنصب في بحيرة نيانزا

ومملكة قراغوة كثيرة الرطوبة وللامطار فيها فصلان وتتسلطن فيها ريحان كما في اونيا موازي الاولى مزدوجة شمالية وشمالية شرقية واسمها عندهم قسقاسي. والثانية جنوبية تصحبها الامطار الغزيرة واسمها قوفي ويكثر معها الرعد والبرق

ويباشرون الزرع في اول وقوع المطر كما يفعلون في مسبنى واوجيجي يعزقون اولاً الارض الى عمق بعيد ويزرعونها ذرة صفراء وجاورسًا وغير حبوب واما الرزّ فلا يعرفونهُ واكثر زرعهم الذرة ويزرعون ايضًا نوعًا من البن البرّي اسمهُ موامي ويكون مرًّا حقير النبت . والفول ايضًا صغير الحبّ جدًّا . وهذا البن لا يستعملونهُ استعمال العرب للقهوة بل يطرحون منهُ قبضة في الماء الغالي ويشربونهُ اذا انحلّ منهُ جوهرهُ . ويقول العرب هناك انهُ مهيج جدًّا ومرطب وطعمهُ قريب من طعم فول مخا

والبقر عندهم لها سنام صغير وقرون كبيرة كما في اوجيجي وعويرة ويعدّونها بحساب الثيران الواحد منها بمقابلة مائة بقرة وكان للسلطان حينئذٍ ٢٠٠ ثور عبارة عن عشرين الف بقرة . والماشية اساس ثروة الاهالي واكثر طعام الاغنياء لبن البقر ممزوجًا بعسل الجبال

وشمالي قراغوة بعد اجتياز نهر قاتنجا يصل المسافر الى قرية قيبوجا قاعدة مملكة اوجندة وفيها مقام الحاكم وهي محط رحال العرب الآتين من قازة نحو الشمال . ويقولون ان هذه البلدة اي قيبوجا مسيرة يوم طولاً ومنازلها مبنية من القصب والقنا . وطول دار السلطان كيلومتران مولفة من اكواخ مستديرة

مصفوفة صفوفًا وامامها سور من الاوتاد لهُ اربعة ابواب على كل باب جرس يدقّ عند قدوم الاجانب وعليها مئات من جنود الحرس عليهم اربعة رؤساء يبدلون كل يومين ويبيتون الليل تحت الطرف اي الخيام من الاديم ينتظرون امر الملك ويبذلون حياتهم في خدمتهِ

والحرم مولف من ثلاثة الاف شخص بين نساء واماء واولاد ولا يجسر احد ان يتجاوز البرزة وهي قاعة الملك للاستقبال واجراء الاحكام والنظر في الهدايا. قيل وكثيرًا ما تحرق الصاعقة منازل الملك فيلتزم الجنود ان يطفئوا النار باجسادهم ينطرحون ويتقلبون عليها حتى تخمد. وعدد الجيش لا يكون اقل من ثلثمائة الف واذا عرض يجب ان كل جندي يقدّم بيضةً. ولكل منهم رمح وحربتان ومزراق وترس وليس هناك سيوف ولا قسيّ

واذا مشى العسكر للحرب تبعتهُ النساء والاولاد بالزاد والماء والسلاح. واذا اشتبك القتال يضربون الطبول ضربًا مستمرًّا فحالما ينقطع صوتها ينهزمون ولا يزال اهل اوجندة في الفتن مع جيرانهم الوايورو والواسوجة وغيرهم واذا خمدت نار الحرب مدة يحاول الملك وجود علة ليكتسح بعض البلاد ويعيث وينهب ويقتل ويأسر حتى يملأ خزائنهُ من الغنائم. ويكثرون من القتل صبرًا حتى تكون ايام يقتل فيها كل دفعة عشرون شخصًا معًا

وكثيرًا ما يخرج الملك للصيد ويلزم جنودهُ ان يقاتلوا الوحوش بلا سلاح ويغلبوا الفيل بكثرة العدد فقط واذا دخل قرية يصيح صيحة فيجيبهُ اهلها باصوات النفير والشبابات ونحوها من الآلات

وآخر ملك على عهد برنون وسبيك كان يقال لهُ سنَّة مات سنة ١٨٥٧ كان يكثر من عرض عساكرهِ الجرارة ويجلس على باب بلاطهِ وبيدهِ اليمنى حربة وباليسرى سير مربوط فيهِ كلب ضخم الجثة وكان يحب صراع جنودهِ فلا يزالون يتصارعون حتى يقتل بعضهم. وكان يتخذ حظيرة يزرب فيها السباع والفيلة فاذا حكم على احد بالاعدام يطرحهُ لديها فتمزقه وتفترسهُ. وكان يحب

كل ما فيهِ غرابة

ويقول العرب انهُ كان احمر قوي البنية مهيب المنظر يحلق راسهُ ويرخي ذوابة ينتظم فيها الخرز واللولوء ونحو ذلك . ولا يسمح بذلك لغيره . ومن ماموري بلاطهِ الشحنة يتصرف في امور البلد ويسود على اصحاب الولايات ومنهم القائد الاعظم تحت امرتهِ جنود الحرس والعبيد والعسكر وبنّاء البلاط والقضاء في العاصمة بيد الملك وفي الولايات بيد نوابهِ . والقصاص عندهم غرامة او قتل ليس الاَّ . والذي يحكم بقتلهِ اما ان يضربوا عنقهُ او يحرقوه او يسلخوا جلدهُ حيًّا . واذا فرّ احد المجرمين تخرب قريتهُ كلها ويذبح رجالها ونقتل نساؤُها

وليس لاهل تلك البلاد شيء من الفطنة والفهم واتفق يومًا لسبيك انهُ جعل يسال احدهم عن امور بسيطة كاسماء الاعداد والبلاد ونحو ذلك فقضى العذاب من قلة فهمهِ وخشونة طبعهِ وذلك يظهر مما ياتي

قال اردت يومًا ان استفهم عن هذه الامور فكان الكل يفرّون مني او يقفون كانهم صم بكم فسالت واحدًا عن اسماء الاعداد في لغتهم وقلت لهُ اسمع يا اخي نحن نسمي الاشياء بلغة الساحل بحسب ترتيبها هكذا واحد اثنان ثلاثة الخ وجعلت اشير باصبعي الى بعض اشياء موضوعة بترتيب لعلهُ يفهم ما اسألهُ فكان يقول لي . هُو هُوْ . نحن نقول اصبع . فقيل لهُ ما هذا ما يسالك الرجل الابيض بل يريد ان يعرف ما تسمّون الواحد والاثنين الخ فيقول واحد اثنان ثلاثة ايّ شيء . من الغنم ام المعزى ام النساء فقال الترجمان ايّ شيء كان ليكن فالمراد ان نعرف كيف تقول واحد اثنان ثلاثة بلغة وابوقا . فقال هي هي . وما يريد الرجل الابيض من الوابوقة . وهكذا بقينا مدة لانعرف ان نفهمهُ المراد لشدة غباوتهِ

وفي ٢٥ آب رجع سبيك من رحلتهِ وقابل برتون واخبرهُ انهُ راى منبع النيل فلم يصدقهُ وطال الجدال بينهما حتى قصدا الذهاب معًا ليحققا الامر

فجهزا فيروانًا وسافرا وقضيا مشقات كثيرة وهرب كثير من العبيد و زاد تشكي الحمالين وتمرّدهم واصابت الحمى سبيك في قرية حنجة لشدة برودة الهواء الشرقي وصمت احدى اذنيهِ والتهبت احدى عينيهِ وانتفخ وجههُ واستولت الاوجاع على جسدهِ وكانت النوب شديدة جدًّا حتى خيل انهُ جن وتغير جدًّا حتى قيل انهُ لا يعيش وبقي بضعة اسابيع حتى تعافى شيئًا

في ١٢ تشرين الاول خرجوا من حنجة التي كانت نحسًا على سبيك ليرجعوا الى الساحل وكان ذلك خاتمة هذه الرحلة المهمة فمضوا من اوجوجو الى زنجوميرو في ١٩ كانون الاول وفي ٤ اذار سنة ١٨٥٩ دخل برتون زنزبار ومنها مضى في ٢٢ اذار الى عدن ورجع الى اوروبا . واما سبيك فبلغ انكلترا ولم يشفِ غليلهُ فكتب رحلتهُ ورجع ثانية لاكتشاف بحيرة نيانزا وينابيع النيل .

وهكذا كانت رحلة برتون وسبيك من اجلّ الرحلات شأنًا واعظمها فائدة



الباب الثالث

في البحث عن ينابيع النيل الابيض



الفصل الاول

اهمية هذه المسالة – النهر الابيض – خرطوم الرحلات المصرية – برون رولى – التجار والمرسلون

اشرنا في القسم الاول من هذا الكتاب اشارة خفيفة الى اهمية المسالة المتعلقة باكتشاف ينابيع النيل . وفي هذا الباب راينا ان نسرحها شرحًا مستوفيًا. فنقول ان هذه المسالة قد شغلت خواطر العلماء منذ اكثر من عشرين قرنًا غير ان البحث جرى فيها بجد ونشاط منذ نحو نصف قرن

وكان هيرودونس المورخ اول من تكلم فيها ثم بينها بطليموس بعض البيان واشتغل بها قيصر الروماني وجغرافيو العرب والبرتوغال فكبرت عن مقدرة البشر وزادت اهمية في خلال الاعصر الماضية . وقد سفكت دماء كثيرة وهلك في شانها جمع غفير من المغرّرين بانفسهم ومع ذلك لم يضعف عزم اولي البسالة ومحبي المعارف فبذلوا الجهد وخاطروا بالنفوس والمال وما انفكوا حتى جلوها في السنين المتاخرة

فهذا النهر العظيم الجليل الشان هو السبيل الوحيد لسلوك التمدن في اقطار افريقية الوسطى . فبهِ اتصل المرسلون الكاثوليك الى قرب خط الاستواء وبواسطتهِ عرفت القبائل الكثيرة البربرية وعوائدهم واخلاقهم واعمالهم وهلمَّ جرّاً وقد وجد الباحثون السابقون بتقدمهم في البلاد ان للنيل مجاري كثيرة تنضم اليهِ من اكثر جهات افريقية الوسطى بعضها ينحدر من بلاد الحبشة الجبلية وبعضها يشق الفيافي جنوبي دارفور والنهر نفسهُ يتقدم كثيرًا نحو الجنوب وهذه الجداول المذكورة وسيلة للاتصاليات التجارية في تلك الانحاء . ومن اخص اصناف تلك التجارة العاج والصمغ وحاصلات الاقطار المدارية وكلها تفيض فيضًا على السودان ومصر . وكل بقعة اكتشفت على ضفاف النيل كانت واسطة نجاح عظيم للتجارة حتى اذا قام بها الناس حق القيام تكون من اكبر وسائل النجاح الادبي والمادي عند تلك الامم . وقال سيك اذا كان النيل ينشق حقيقة من البحيرات الكبيرة التي يكثر في انحائها القطن والنيل وقصب السكر والبن والتبغ والماشية الوافرة من بقر وغنم وغير ذلك فلا بد ان السياحة في المستقبل في تلك الاقطار تاتي بفوائد جمة

وللنيل اصلان عظيمان كما هو معروف الآن يجتمعان في الدرجة ١٥ والدقيقة ٣٠ من العرض الشمالي فالشرقي منهما يقال لهُ البحر الازرق وهو معروف معرفة جيدة ينحدر من جبال الحبشة وينزل بشلالات كثيرة الى سهول السودان الشرقية فيلتقي بالمجرى الجنوبي وهو النيل الابيض. وكان الاوروبيون لا يعرفون عنهُ شيئًا حتى سنة ١٨٤٠

وكان العلاَّمة بروس قد وصل الى ينابيع النيل الازرق سنة ١٧٧٠ ووصفها وصفًا مدققًا لكن سبقهُ الى ذلك راهبان برتوغاليان اسم احدهما بايز والآخر لوبو . فاراد بروس ان يخص نفسهُ دونهما بفضل هذا الاكتشاف وطعن فيهما وافسدا ما كتباه ونسب كل شيء صحيح الى نفسهِ لكن ظهر الحق بعد ذلك وعرف ان الفضل كان لبايز

وعلى ملتقى النيل الازرق والنيل الابيض قائمة مدينة الخرطوم . وينفرش النهر بعدها حتى يكون كالبحر الراكد يشفّ عن زرقة الجوّ واشجار ضفتيهِ

واذ كان موقع الخرطوم اجل مواقع المدن السودانية والنيلية كانت اهميتها التجارية تدعو الى ازدحام الاقدام بها فيوتى اليها بالنيل الازرق بحاصلات سنار والحبشة وكردفان وغيرها وبالنيل الابيض بحاصلات افريقية الاستوائية فتكون السفن عندها مالئة النهر في مسافة اربعة كيلومترات ومنها نوع يقال لها الذهبيات وهي كبيرة بيضاء القلوع تفيض بها العاج وقرون الكركدن والصمغ والقطن ورمل الذهب والسنا والاخشاب الثمينة وريش النعام وجلود البقر والذرة والعبيد . فترى من الناس هناك اشكالاً والواناً بين سودان وعرب وافرنج ومصريين على اختلاف ازيائهم وهيئاتهم . وحول المدينة على النهر بساتين نضرة سابغة الظلال كثيرة الاطيار طيبة الثمار بين عنب وتين وليمون وغير ذلك وفي النهر هناك جزر صغيرة يزرعون فيها الفاووت والبطيخ ونحوهما

وفي الخرطوم جهّزت الجريدة الاولى المصرية بامر محمد علي باشا فرحلت الى جهة الجنوب في ١٦ تشرين الاول سنة ١٨٣٩ . وكانت مولفة من اربعمائة رجل من العسكر المصري المقيم في سنار . فركبوا من السفن خمس ذهبيات كبيرة ارسلت من مصر وثلاثاً اخر اخذت من النيل الازرق وخمسة عشر زورقاً فيها الذخيرة ولم يكن معهم من الاوروبيين الاّ رجل واحد كانت الرحلة مخصوصة بهِ واسمهُ تيبو فلم يصادفوا نجاحاً ولا اتى هو بفوائد جغرافية تستحق الذكر . لانهم سافروا في ايام شديدة الحرّ وتكلفوا مصاريف فاحشة فاضطروا الى الرجوع قبل بلوغ الدرجة السادسة من العرض . لكن عرفوا بهذه الرحلة جهة مجرى النهر والاقطار التي يسقيها . وذكر بعض مقدميهم انهُ اجتاز بلاداً قليلة الجبال ترى فيها تارة غياض كبيرة وتارة سهول فسيحة منقعية كثيرة القصب والاعشاب العالية . وعلى ضفتي النهر في تلك البلاد قرًى مختلفة المنازل

باختلاف القبائل . وبعض اولئك القبائل اصحاب طمع وحرص وتمرُّد وخبث كالشلوق والنّوَر والبعض اصحاب دعة وسكينة ومواساة للغرباء

وكان الجنود المصريون حينئذٍ يحتقرون السودان لدناءتهم وحقارتهم فاساؤوا التصرف معهم وظلموهم وجاروا عليهم في ما يملكون حتى تمنع المساكين بعد ذلك من مواصلة البيض حذرًا من مثل هذه الاساءات . قال تيبو في ذات يوم اتانا هؤلاء القوم بجم كثير وتبعونا ومعهم رماح وسهام وكان بعضهم يرقص فقال الترجمان ان لهم نوايا شريرة فكان قوله كافيًا لان يبذل فيهم السيف ويطلق عليهم الرصاص فقتل كثيرون وفرّت شرذمة قليلة الى القرى المجاورة ففتك العسكر في اهل القرى وغاص كثيرون منهم في بحيرة هناك فرموهم بالرصاص حتى استحال الماء دمًا وغشي سطح البحيرة عدد وافر من الجثث

وفي ٥ شباط خرج الترجمان ببندقيته للصيد فراى رجلاً ومعهُ ابنان لهُ عمر الواحد نحو عشر سنوات والآخر اثنتا عشرة وكانوا يجتنبون الدنو من الزوارق . فصاح بهم الجندي فما اجابوا فاسرع الخطى حتى ادركهم فقتل الاب واسر الولدين وهما ينوحان

وفي ٢٢ منهُ راى بعض الجنود رجلاً وأمراتين حاملين على رؤوسهم مزاود فدنوا منهم وقتلوا الرجل وسبوا المرأتين

وبعد هذه الرحلة جهزت جريدة اخرى لاكتشاف ينابيع النيل وكان فيها جماعة من الاوروبيين من جملتهم ارنود وسباتيي وورن وهم الذين كتبوا التقريرات الوافية عن تلك الرحلة . فصعدوا النيل الابيض في ٢٣ تشرين الثاني سنة ١٨٤٠ باحد عشر فلكًا كبارًا وقطعوا مسافة ٢٠٣ ميرياميترًا وبلغوا بلاد باروشيري الى الدرجة الخامسة من العرض الشمالي . فارتفعت الارض هناك وتغيرت المناظر وكانت الادغال كثيفة على ضفتي النهر والارض كثيرة الهضاب والسهول والمروج والقرى . فكان الاهالي هناك متمردين لكن احسنوا الى الجماعة وقدموا لهم لحمًا وعاجًا وذرة ونوعًا من الشراب يسمونهُ جابا (لعلها الجعة)

وامة الباري هذه طوال القامات ضخام الاجسام لا يلبسون شيئًا من اللباس يدّهنون بالمغرة ويلبسون حلى العاج والحديد الا ان زعيمهم يلبس قميصًا من الخام الازرق . وهذا دليل على ان لهم انصالية وراء الجبال الشرقية مع تجار العرب الآتين من ساحل زنجبار

وكان الاهالي لما راوا الغرباء قد صاحوا ونفخوا بقرون بقر الوحش فاقبل زعيمهم المذكور وهو يهزّ راسهُ وعليهِ عثكولة كبيرة من ريش النعام وصار يرقص والجماعة حولهُ يفعلون فعلهُ وهم يصيحون . ثم نزل الفلك لا يرهب منكرًا واخذ ايدي روّساء الجند وكان يعض اطراف اصابعهم علامة الاحترام ثم طلب اليهم ان يقدموا لهُ شيئًا من التحف على سبيل التكرمة فقدموا لهُ ثيابًا حمراء ولآلىء كاذبة مختلفة الالوان وجرسًا صغيرًا كاد يطير سرورًا بترديد رنتهِ واطعموه شيئًا من التمر واجلسوه على طنفسة فلما ارتحل اخذ الطنفسة في جملة ما اخذ منهم ولم يمنعوه. وارادوا ان يتموا سيرهم في النهر الى ما وراء الجبال فاعترضتهم في مجراه صخور كبيرة شامخة لا يُركب النهر بينهما فرجعوا

ثم كانت رحلة انطون و أرنود ابادي سنة ١٨٤٦ الى جنوب الحبشة فانجلت بها غوامض كثيرة و بعد ذلك حصلت وسائط كثيرة اتضح بها هذا السرّ شيئًا فشيئًا فعرف تلاع النيل الابيض لكن لم تكشف منابعهُ معرفة مقررة وظهر سهلاً المسير فيهِ الى قلب البلاد المار ذكرها الكثيرة الخصب الوافرة الحيوانات . فانقدت غيرة المسيحيين ونهضت بالتجار هممهم وصارت تلك البلاد نقطة ارتحال لجماعات كثيرة من مبشرين وتجار

وكان من مشاهير التجار الذين اول من اقتحموا تلك المخاطر برون رولى فاتى عن احوال البلاد بفوائد جليلة وفي رحلتهِ تفاصيل كثيرة تنبيء عن احوال الامم المجاورة للنيل الابيض وقضى في استقرائهِ مشاق كثيرة

وسنة ١٨٤٩ انشئ مركز تبشير للكاثوليك في مدينة خرطوم وعزمت لجنتهُ ان تتقدم بالتبشير الى الدرجة الخامسة من العرض اي قرب خط الاستواء

فبلغت غندوكورو وهي المحطة الاخيرة التجارية على النيل الابيض الى جهة الجنوب . ووصل واحد منهم الى جزيرة في مجرى النهر فيها جبل شامخ كانه هرم كثير الشجر فرقي قمته واستشرف مجرى النهر فرآه الى مسافة بعيدة تارة ينحدر من شلالات مستوعرة وتارة يتخلل الفيافي والقرى الى ان ينتهي صاعدًا بتعريج بين الجبال القائمة في الافق . وبالاختصار فقد افاد العلماء اولئك المبشرون فوائد جمة بشان الاقطار النيلية وانشأوا مركزًا آخر عند الدرجة السابعة من العرض . فبناء على تقريراتهم واخبار السياح من التجار نصف في الفصل الثاني الهيئة العمومية الجغرافية لاقطار النيل وضفتيه وعادات الامم هناك

الفصل الثاني

امة الشلوق — بحيرة النوه والنور — بلاد النطشة — النبات والحيوان
فرس الماء — صيد الفيل — عادات واخلاق الدنقة — الحيات

النيل الابيض ياتي من فوق خرطوم من الشمال الى الجنوب وطول مجراه اكثر من ثمانمائة كيلومتر وهو عريض جدًا يحتوي على عدة جزر يعلو الماء فوق كثير منها ايام الفيض . والنباتات كثيرة جدًا في الجزر المذكورة وعلى الضفتين والغابات متسعة جدًا مختلفة الازهار والثمار وتكثر فيها القرود والطيور بانواعها والحيوانات البرية . والجزر والضفة الشمالية من النهر ملجأ للقبائل البربرية ولا سيما الشلوق وهم عبيد لصوص محتالون قساة جفاة عتاة يركبون

قوارب تسيربهم كالسهام ويقطعون الطرقات ويغزون القبائل المجاورة لارضهم ويأخذون كثيراً من مواشيهم . فانهم يراقبون العرب المجاورين ليعرفوا ابن يوردون ماشيتهم فاذا عرفوا يجتمعون في نحو اربعين قارباً ويسيرون ليلاً على الضفة الاخرى من النهر فلا يراهم العرب . فاذا بلغوا مورد الماشية يخفون قواربهم بين الاشجار وفي اخوار الجزر ويمكثون كامنين حتى ترد الماشية فينقضون عليها بقواربهم وينزلون الى الشاطئ فيقتلون او يطردون رعاتها اذا وجدوهم شرذمة قليلة ويسلبون الماشية ويرجعون قبل ان يصل الخبر الى القبيلة . وقد يحدث ان العرب ينذرون بهم قبل هجومهم فيكمنون لهم على ضفة النهر وعندما ينزلون الى البر يقبضون عليهم ويأخذونهم عبيداً

ومنازل الشلوق ممتدة سلسلة طويلة على الضفة الغربية الى مسافة بعيدة جداً حتى لا يحصى عدد سكانها لكثرتهم وتفرقهم . وليس على ضفاف النيل الابيض قبيلة غيرهم لها زعيم واحد تخضع له . يكون مقامهُ في دناب ومنازلهُ تبلغ المئة شكلها هرميّ . والسيادة ارثية في عائلتهِ لكن ليس ابنهُ الذي يخلفهُ بل ادنى اقاربهِ واول عمل يعملهُ خليفتهُ الاحتفال بدفن جثتهِ لان الشريعة عندهم ان جثة الملك المتوفي تبقى في بيت خاص الى ان يأتي الخليفة فيدفنها

والملك مستقل مستبد في سلطتهِ ويستولي على اولاد المجرمين ونسائهم وتجارة العاج بيدهِ وحدهُ ولا يدنو منهُ احد الا زاحفاً وفي يدهِ شيء من الخف

وهيئة الشلوق قبيحة جداً تؤذن بالتوحش ولا يلبسون لباساً الا النساء فيلبسنَ مآزر من جلود الحيوانات يسمى عندهم الرشاط . والشبان يبالغون في تزيين ابدانهم فيرسلون شعرهم حتى يطول جداً ويجدلونهُ ويلفونهُ على رؤوسهم كالعمامة . وبعضهم يضع شيئاً كالمشط من القفا الى الجبهة يلفون عليهِ شعرهم ومنهم من يضع دائرة من ريش ابيض حول راسهِ على شكل الاكليل . ويجعلون في معاصمهم اساور من عاج يصنعونها بايديهم . ومن طبعهم العتوّ والاستبداد يشتغلون بالزراعة وتربية الماشية ولا يذعنون لحكم اجنبي . لكن يسهل عليهم

ان يشتروا الحلى النحاسية بمواشيهم

والضفة اليمنى من النهر تمتد بسهل فسيح الاطراف فيهِ بعض آكام منفردة شامخة والسكان هناك لفيف من ارومة قديمة كثيرة الفروع منها امة في اعالي مجرى النهر تسمى الدنقة

وفوق الدرجة العاشرة ينعطف النهر غرباً بعد ان ينصب اليهِ نهر كبير يقال لهُ صوبة لايعرف اصلهُ وكثيراً ما ركبهُ تجار العاج ورمل الذهب من اهل خرطوم وفوق هذا النهر بنحو عشرين فرسخاً بخرج النيل من بحيرة لم يضبط تعيين حدودها يقال لها بحيرة النوّ تصير في ايام الحرّ غديراً محاطاً بمناقع وفي ايام الفيضان تتسع فتشغل مساحة كبيرة جداً . وفي هذه البحيرة يصب نهر غير معروف تماماً يسميهِ الجغرافيون باسماء كثيرة كبحر الغزال ومصلات وقيلق وبحر العدى وهو يجري غرباً ثم شمالاً ثم جنوب غرب ويظهر بالتحقيق انه آتٍ من جهة الجنوب كالنيل الابيض . وبين نهر صوبةٍ وبحر الغزال يسقي النيل بلاد النوَر ويختلف منظرهُ اختلافاً عظيماً بين خصب الارض وجدبها وعامر وغامر حتى يظهر ماء النهر اسود راكداً مغطىّ بالنيلوفر تنتشر منهُ روائح نتنة وتكون الغابات بعيدة عنهُ فلا ترى على مد البصر الا سهول مكسوة بعشب مرتفع والمناقع على الضفتين كثيرة القصباء وبينها بعض اشجار . وتجر الانهر الى بحيرة النوء اوحالاً كثيرة فلا تحد شطوطها وتتصل الاماكن العميقة منها بالسهول المجاورة بمناقع عظيمة لايمكن للانسان ان يضع فيها قدمهُ وباختلاف الفصول تجف بعض البقاع وتكون في بعضها قيعان مخصبة . ويكثر هناك البعوض كثرة عجيبة فيشتد اذاها على السياح في فصل الشتاء وعند غياب الشمس تهجم جيوشها الجرارة على السفن فيختبيء منها الناس تحت استار كالكلل (اي الناموسيات) واذا حلك الظلام يرى الحباحب (اي سراج الليل) كثيراً جداً . واما في الصيف فلا يبقى للبعوض اثر لنضوب المياه المستنقعة التي يتولد منها لكن يظهر في الليل منظر غريب بحر من النيران يتلاطم بالرياح فيتخلل الاعشاب الكبيرة الجافة

بحرارة الشمس ويحرقها بما فيها من الحشرات والزواحف . يضرمها الاهالي قصداً لتنظف الارض وينبت حشيش جديد ترعاه المواشي . وايضاً لكي تنفر الوحوش من هناك

ومنازل النوَر على شواطئ البحيرة وعلى ضفتي خليج يقال له بحر الزرافة وتتصل ايضاً بنهر صوبة حيث كانت منازل الدنقة فطردوهم . وهم اشداء شجعان ترهبهم القبائل المجاورة لهم من السودان . وشغلهم الفلاحة وزراعة الذرة ومنظرهم يوذن بالهيبة وتقاطيعهم معتدلة لهم ملامح الاوروبيين تقريباً . ويلبسون على رؤوسهم قبعاً مخروطي الشكل يغشَّى بالاصداف والخرز وفي عنقهم قلادة من الخرز ايضاً ويطرحون على اكتافهم جلد نمر ويتمنطقون بمنطقة يعلقون فيها حلقاً وفي معاصمهم اساور من قطع عاج رقيقة حادة . ويرسلون شعرهم ويطلونهُ بطلاء احمر يمنع لبوتهُ للزوجتهِ ويجعلهُ سبطاً وهذا الطلاء يولف غالباً من رماد وروث البقر والبول يخلط بمغرة ليكون احمر فيضعونهُ على الشعر ويتركونهُ حولاً كاملاً ثم يجددونهُ والنساء يضعنَ مئزراً من جلد وطوقاً من جلد ايضاً واساور من خرز وخلاخيل من نحاس او عاج . والصبايا يلبسنَ مئزراً من ورق الشجر ويثقبن الشفة العليا ويغرزن فيها ناب حيوان بطول الاصبع مرصعة بخرز ازرق وفي راسها لؤلؤة بيضاء . وهذه العادة تزيد شيوعاً كلما تقدمت الى جهة الغرب

ويخترق النيل من حد مصبهِ في بحيرة النوء الى نحو ثلاث درجات فوق البحيرة بلاداً منخفضة منتقعة وهو فيها كثير العطفات ضيق المجرى ويسميهِ الاهالي هناك باسم قير . وعلى ضفتيهِ من القسم الاسفل كثير من القصباء والحلفاء والبردي وغير ذلك من النباتات المرتفعة حتى يختفي بينها الجاموس ويتالف منهُ في عدة اماكن غدران واخوار ينمو حولها شجر السدر . وعلى مسافة من المجرى ترتفع الاراضي ويكثر الشجر وينقطع القصب ونحوهُ من الأَسل وتكثر النباتات المتعرشة وتتكاثف جداً حول جذوع الاشجار الكبيرة حتى يصعب جداً تتبع طرق

الوحش بينهما . ومن انواع تلك الاشجار الدلب والباوباب والفربيون والساسم والابنوس وشجرة السمن والتمر هندي وشجرة الصمغ المرن وكثير غيرها من الاشجار النافعة . ومن الاشجار الصغيرة القطن والكرم وغيرهما

ولكثرة الغياض وغزارة الماء واتساع البقاع وقلة السكان تكثر الوحوش كثرة عظيمة تفيض بهما مياه النهر والمستنقعات والاحراش انواعًا وافرة . والسمك في النهر كثير ايضًا ومن جملة انواعهِ الرعّاد المشهور والسلاحف الضخمة واكثر طعام الاهالي من صيد السمك . وفيهِ ايضًا فرس الماء والتمساح وهم يخافونهُ جدًّا حتى انهم يطرحون لهُ عنزًا كلما قطعوا النهر . وفي القصباء تكثر الحيات والورل وغيرها من انواع الزواحف . ومن الطيور النسر الصيّاد يصيح احيانًا صياحًا غريبًا . والنعام والحبارى وديك البرّ والوزّ والكركي ودجاج فرعون والبط وانواع طيور الماء . ووحش القنص ايضًا انواع كثيرة

ومن الحيوانات الكبيرة الاسد وهو هناك كاسر جدًّا يفتك فتكًا شديدًا ويهجم على الانسان في منزلهِ ويتخطى اليهِ السياج المرتفع ويزمجر زمجرة مخيفة جدًّا طالما اقلقت السياح في جوف الليل ومنهُ نوع يقنص البقر الوحشي والاهلي . ومنها النمر والفهد والضبع والهر البرّي وكثيرًا ما تسطو على الماشية لكن تهرب من الانسان . والفيل كثير جدًّا يكون قطعانًا عديدة يصيح صياحًا مزعجًا ويتلف شيئًا كثيرًا من النباتات الصغيرة والكبيرة ويقتلع الاشجار بخرطومهِ . ومنذ سنتين كثر صيدهُ فقل عددهُ شيئًا وتحصل من عاجهِ كميات وافرة ويقتلونهُ بالرصاص غالبًا والسودان يحفرون في طريقهِ حفرًا عميقة يسترونها باغصان الشجر فاذا مرّ سقط فيقتلونهِ طعنًا بالرماح والعرب المجاورون للشلوق يصطادونهُ بالرماح على الخيل . يخرجون اليهِ اثنين اثنين الى ستة ستة فيطاردونهُ ويدورون حولهُ في دائرة متسعة يضيقونها بالتدريج حتى يقتربوا منهُ فيترجل واحد منهم من ورائهِ وهو ملتهٍ برفاقهِ ويطعنهُ بالرمح في بطنهِ فيشقهُ فيطفر وينعطف اليهِ فياتي الآخرون ويشبعونهُ طعنًا من الوراء فيسقط صريعًا .

وخيل هولاء العرب تسابق الرياح ولا يفارق الفرس فارسهُ ولو بقي وحدهُ وتحقق الخطر. وقد يكرون على الفيل عدة مرار وهم يطعنونهُ حتى ينزف دمهُ واكثر فوزهم بصيد الفيل في السهول واوقات الحرّ والجفاف وقلما ينجحون بين الادغال والمناقع

والسودان يصطادون ايضًا الزرافة وتكون اسرابًا كثيرة في المروج ويصطادون الكركدن والجاموس على شدتها وضرائها

ووفرة فرس الماء في ذلك النهر مما يفوت حد التصديق فمن بحيرة النوء الى بلاد باري لاتزال قطعانهُ ترى كل قطيع مولف من نحو خمسين فرسًا وهو غير كاسر لكن شديد الحذر لا يزال يرفع راسه فوق الماء وينظر يمينًا وشمالًا ثم يغوص . وترى كميات منهُ في النهار تلعب وتتواثب على الشاطىء بطمأنينة فاذا رات سفينة تواثبت الى الماء وغاصت وهي تزمجر حنقًا . واذا كان الليل تسمع لها ايضًا زمجرة شديدة تدوي لها القيعان والادغال ثم تجتمع وتخرج الى البر لترعى فاذا دخلت ارضًا مزروعة ذرة اتلفتها اتلافًا تامًا اكلًا ودوسًا بارجلها والسودان يرغبون في صيدها لاخذ اسنانها وجلودها ولحمها ايضًا لكنّ في صيدها خطرًا جسيمًا لان الرصاص لا يوثر في جلودها الصفيقة . وقد وصف كوفمان هيئة صيدها مرة قال كنا في غندوكورو في ١٨ شباط سنة ١٨٥٨ فاتى تجار العاج ومن جملتهم رجل يقال لهُ علي طوبى كان اصحابهُ لم يذوقوا طعامًا الا الحبوب منذ مدة طويلة فاراد ان يطعمهم لحمًا فعزم على صيد فرس الماء . فاتى ضحوة ثاني يوم واخبرنا انهُ رمى فرسًا بالرصاص فخرق دماغهُ وجرح آخر وبقي اصحابهُ يراقبونهُ ريثما ياخذ لوازم الصيد لنفاد ذخيرتهم . فمضينا معهُ لنتفرج على هذه العملية فوجدنا جمهورًا غفيرًا من السودان اقبلوا على صوت البارود وازدحموا لتوزيع اللحم عليهم . فركب عليّ زورق رجل باريّ ماهر في صناعتهِ وتقدم الى الفرس المجروح واطلق عليهِ الرصاص فوثب على الشاطىء فاعترضهُ السودان بسهامهم فشكوها في راسهِ وطعنهُ آخر بمخراق في عينهِ واثبتهُ

فيها فرجع الى النهر محاولاً اقتلاع الخراق وغاص تحت الماء. ولا يستطيع ان يمكث تحت الماء الا ريثما يحتاج الى التنفس وكان عليّ يتبع اثرهُ فلما رفع راسهُ رماه برصاصة خرقت دماغهُ فرمجر زمجرة مخيفة ووثب على الزورق من شدة حنقهِ غير ان الملاّح الباري تراجع عنهُ بخفة وكان الفرس ايضاً قد وهى عزمهُ وكان الدم يجري من راسهِ وهو يحاول الفرار وعلي يطاردهُ ويقطع دونهُ السبل حتى رماه برصاصة اخرى في قذالهِ (اي خلف اذنيهِ) فقلنا هذه تكون القاضية فطفر بعزم شديد حتى ارتفع كل بدنهِ فوق الماء ثم سقط وجعل يخوض الماء ويدور على نفسهِ بعنف شديد . وصارت قوتهُ تتلاشى شيئًا فشيئًا الى ان بطلت حركتهُ. فتقدم علي واطلق عليهِ الرصاص ايضاً فطفر ثانية فوق الماء وسقط صريعاً وبعد دقائق ظهرت قوائمهُ فضج السودان ضجيج الفرح والاستبشار وقد قضي الامر

وبرابرة السودان يصطادونهُ براً بالخاريق يربطونها بحبل متين في جذع شجرة فاذا انفذوا الخراق في الحيوان يسرع الى الماء ويغوص وهو يزمجر . ويفعلون بهِ ذلك وهو في النهر ايضاً لكن كثيرًا ما يصدم السفن فيقلبها ويفرّ اصحابها سابحين خوفًا من سطوتهِ

وكل ذلك القسم الذي يجري فيهِ النهر الى الدرجة السادسة يقطن فيهِ امتان يقال لاحداها الطويشة وهي على الضفة اليمنى وللاخرى القطشة وهي على اليسرى . يقيمون هناك في ايام الجفاف ليرعوا مواشيهم في القيعان وتشبّ بينهم نار الفتن. وهم والبورة والالبابة الى جهة الجنوب من سلالة امة الدنقة التي تنتشر في تلك الارض الى جبل نياتي في الدرجة ١٢

وامة الدنقة هذه على ما اخبر المبشرون الذين عاشروهم مدة طويلة هم اجمل الامم التي على ضفاف النيل الابيض بنيتهم جيدة خفاف الحركة طوال القامات هيئتهم لا تدل على التوحش كسائر تلك الامم السودانية وكانوا ودعاء لكن ساءت طباعهم بعد ما اساء اليهم الذين يتجرون بالعبيد . ومن عاداتهم انهم يوسمون بجرح عميق بين العينين ويخرجون منهُ دوائر بالوخز على الجبهة وكلامهم

مولف من مقطع واحد على الغالب وليس عندهم حروف الصفير وذلك لانهم يقتلعون الثنايا الاربع الامامية . ويحلقون شعورهم الا ذوابة يعلقون بها اللآلئ ويجعلون في ايديهم وارجلهم اساور وخلاخيل من العاج وحلق النحاس والحديد ويكرهون كل لباس . والنساء يتزرن بجلدين واحد من الامام وواحد من الوراء والخلفيّ اطول ويعلقن فيهِ شبه اجراس صغيرة وحلقًا من حديد او نحاس حتى يسمع للمرأة خشخش من مسافة بعيدة اذا مشت وقد يسترن اكتافهنّ وصدورهنّ من حرّ الشمس . والرجال والنساء يعلقون في اذانهم حلقات ثقيلة من نحاس وسلسلة من حلقات صغرى ويربطنَ بها خيطًا يشدّ الى اعلى الجبين حتى لا تستطيل الاذن من ثقلها بطول الزمان

ويتعاطى الدنقة رعي المواشي ومن طبعهم الكسل لايطلبون الثروة ويكتفون بالكفاف لكن يعانون الاتعاب في بناء منازلهم والنساء يقمنَ بسائر الاعمال يفلحنَ الحقول ويحرثنَ الارض بحديدة كالهلال ويقلعنَ اصول النباتات غير النافعة ويبذرنَ ويحصدنَ ورجالهنّ على الماشية وزيارة الجارات لاياتون البيت الا وقت الاكل . والمجاعة تكثر عندهم لتقاعدهم عن الادّخار لكن الله يتدارك حاجتهم بعنايتهِ فعند انتهاء الحصاد يكون وقت نضج الثمار الكثيرة عندهم فلا يخطر ببالهم ان يزرعوا ثانية في نفس السنة ويتهافتون على التمر . فاذا جاء وقت الجفاف اي زمن القيظ يتسارعون الى جوار النهر بمواشيهم ويسرحونها في المروج ويقتاتون باللبن والسمك لكن لقلة اللبن ولسوء نتيجتهِ اذا اطيل استعمالهُ مجرّدًا طالما يحتاجون ان يبذلوا ما عزّ وهان ليبتاعوا حبوبًا من جيرانهم الذين هم ابصر منهم في عواقب المعيشة . وفي تلك الاثناء تكون نساء الفقراء في الغابات يجمعنَ فضلات الطعام لسدّ الرمق في ابّان الجوع

ولو فطن اولئك البلهاء لما ذاقوا مرارة الشدة لان الارض خصبة جدًّا والتربة في غاية الجودة والريّ وافرٍ وافر وفي بلادهم بقاع كثيرة مهملة

على جودتها يجود بها السمسم والذرة والتبغ . ويسهل ان يحصل موسمان في السنة لغزارة الريّ وقد حصل المبشرون هناك ثلاثة مواسم في السنة من نوع من الحنطة اتوا بها من خرطوم تخرج غلتها في شهرين والذرة تحصل غلتها في ثلاثة اشهر

ومعظم اهتمام الدنقة في البقر فهي اعز عندهم من نسائهم واولادهم لانها عمدة حياتهم على زعمهم وما سواها فضلة وبقورهم صغيرة غير حسنة الشكل بخلاف البقر التي في جوار نيانزا جنوبي خط الاستواء . ولبنها قليل جدًّا وليس لهم منفعة من لحومها لانهم يحترمونها جدًّا فلا يمكن ان يذبحوا واحدة لاكل لحمها . واذا ماتت بقرة يندبونها كالولد والاخ والاب ويربط صاحبها رباطها في عنقهِ ويطوف بين الناس نادبًا سوء حظهِ . واتفق ان احد المبشرين ذبح عجلاً فلقبوه بالذئب

واما الثيران فيذبحونها في المواسم الكبيرة والاعراس والمآتم ولا يحصل للسياح من لحمها شيء الاَّ بدفع مبلغ جسيم من نحاس اوخرز ولشدة احترامهم للبقر لاترى فيهم رجلاً الا ملقبًا باسم ثورٍ ولا امرأة الا ملقبة باسم بقرة واكثر حديثهم يدور على ذكر البقر وبها تختص اغانيهم ولاجلها تنشأ حروبهم واحسن مكان عندهم مرابض البقر فيجتمعون هناك وينظرون اليها بلذة ويجمعون ارواثها بايديهم ويجففونها بالشمس ويستخدمونها اما حرقًا في المرابض لطرد البعوض او يعلون منها الطلاء المار ذكرهُ لشعرهم او يخلطونها بالرماد ويحشون بها فرشهم . واما ابوال البقر فهي ايضًا في مكانة عظيمة من احترامهم يغسلون بها القدور والمراجل والصحون ويغتسلون بها ايضًا ولا يفضلون عليها الماء الزلال العذب ويصل بهم الامر الى ان يعتبروا السعيد منهم من يلازم بقرة فاذا بالت يجعل بدنهُ تحتها فيغتسل بهِ ويفرك بهِ وجههُ وهو في اشد الفرح . ورائحة روث البقر وبولها اشهى الروائح عندهم

واما مساكن الدنقة فعلى نوعين فمنها ما يبنونها بسرعة على ضفة النهر وتكون

اكواخاً من القصب مطينة بروث البقر يتقون بها النسيم البارد في الليل في فصل القيظ وتكون موقتة . ومنها المساكن الاصلية التي يقيمون بها يبنونها في الاحراش وتكون اكواخاً مستديرة قطرها نحو اربعة امتار تقوم على اوتاد وتشدّ بالاغصان وفي خلالها القصباء ويسقفونها بالقش اليابس على شكل مخروط ويطينون جدرانها بالتراب وروث البقر ويرصون الارض حتى تشتد صلابتها ويجعلون الابواب ضيقة يمرون بها زحفاً كالحيوانات في اوجرتها ويقفلونها ليلاً بقفل من القش من الداخل . ويجعلون على الجدران تماثيل رؤوس البقر علامة للوداد والحيات علامة للكره والبغضاء وينامون على جلد او فراش من القش ويكون الاثاث كرانيب محززة واوعية خزفية وقصبات غلايين يكثرون من استعمالها وسلال معلقة في السقف توضع فيها ذخيرة الحنطة . وليس عندهم ارحية فيدقون الحب بهاوين من خشب صلب . فاذا جاء الليل يجتمعون ويتسامرون ملياً ويستدفئون بنار الروث وينغمسون في الرماد لاتقاء البرد القارس

وللسودان رغبة شديدة في الرقص . ورقص الدنقة يكون ليلاً في ضوء القمر يدورون به حلقة على صوت الطبل يقفزون ويصيحون كالوحوش ويغنون اغاني لاتلحين فيها موضوعها ذكر النساء والبقر . وفي هذه الاجتماعات يختار الشاب عروسة فاذا وقع اختياره على واحدة تعقد الخطبة باداء المهر لعائلتها وتكون قيمتهُ بالنسبة الى رتبتها فابن الحاكم عند القطشة يدفع لابي خطيبتهِ اذا كان رئيساً ايضاً عشر بقرات وعشرة ثيران ولامها عشر بقرات . وبعض قلائد من الخرز او النحاس لادنى اقربائها . ولا تتزوج البنت قبل الخامسة عشرة ولا الشاب قبل العشرين مع ان الادراك هناك يكون قبل ذلك العمر بمدة غير قصيرة لحرارة الاقليم . فاذا حان الزفاف ياتي اصحاب العريس بصحف مملوّة لبناً يقدمونها لابي العروس فاذا كان من الرؤساء يذبحون ثوراً ويولمون وليمة حافلة ويقدم العريس قسماً من المهر المتفق عليهِ فتصير الفتاة لهُ شرعاً فياخذها الى منزلهِ من غير احتفال ولا يؤدّي تمام المهر الا اذا ولدت

له ولدًا فان كانت عاقرًا فلا. ويطلقها ويتخذ غيرها

والعروس قبل ان تلد تتمتع براحة تامة وافراح دائمة يكون الكل في خدمتها كانها ملكة صاحبة امر ونهي فمتى ولدت بطل كل ذلك وتصير كالأمة فتسعى في جلب الماء والحطب من الادغال تحت الامطار وتقوم بتدبير المنزل والفلاحة والحصاد ولا يفارقها رضيعها في كل اعمالها وترضعهُ احيانًا مدة سنتين اذا لم تغل وتصنع له ارجوحة من الجلود وتعلقها بمناكبها وتذهب لاعمالها فاذا حصدت او حرثت تعلق الارجوحة في شجرة حتى اذا انتهت حملتهُ وحملت الحطب وعادت الى بيتها فتذهب نضارتها في وقت قصير بسبب هذه المشاق وحينئذٍ يشتري زوجها فتاة اخرى ولا يجوزان يتخذ ضرة ولذلك لاتكثر النساء الاعند الاغنياء فكلما كانت نساء الرجل كثيرة كانت دليلاً على وفرة ثروته

واما الدين عند الدنقة فهو على غاية من الخشونة لكنهم يعترفون بواجب الوجود ويسمونهُ دَنْدِيد ويعرفون انهُ هو خالق الشمس والقمر والبشر غيرانهم لا يعتقدون خلود النفس بل يزعمون ان الانسان يفنى بالموت . ومع هذا الضلال يوجد اعتقاد خفيف عند البعض فيقال ان القطشة والباري يذكرون ان الله خلق الناس الصالحين وجعلهم عندهُ في السماء ولما اساء بعضهم تصرفهُ ارلهم الى الارض بالحبال. واهل الصلاح من البشر يقدرون ان يصعدوا الى السماء بهذه الحبال لكن بطول الزمان يتحاتّ الحبل وينقطع وقد اغلقت ابواب السماء دون الجميع

وعندهم فكر آخر بشان سعادة الانسان الاولى وسقوطهِ يستنتج من كرههم للحيات لانهم يعتقدونها مبدأ الشرّ ولها يقدمون الضحايا لانهم يقولون ان الله لعظم صلاحهِ لايحتاج الى ترضية. ومن الغريب انهم يعرفون الحية المسماة بيثون في الميثولوجيا اليونانية ويذبحون لها ثورًا . قيل ولا يبعد ان هذا الاسم اتصل منهم الى مصر ومنها الى بلاد اليونان . وكل الحيات عندهم سامة الا الافعى الخضراء التي تتعلق بين القصب على ضفة النهر. والمسماة بيثون يبلغ طولها اكثر

من ستة امتار . وكل انواع الحيات توجد في الاحراش والبساتين والمنازل ايضًا تنساب اليها لتقتل البقر وتنهش لحومها . فلا يخرج الانسان من منزلهِ الاَّ متحذرًا لكثرة وجودها في كل وقت . ولسع الحية هناك ينتج هولاً شديدًا

وقد ذكر بعض السياح حية انت وهو مع جماعة جلوس على المائدة ليلاً وكانت من اخبث انواع الحيات تقتل من ساعتها . واول من رآها منهم صاح منزعجًا وبهت الجميع وجعل السائح ينظر هنا وهناك ليراها ثم رآها ساعية نحوهُ وتسلقت رجليهِ وقصدت الدخول في كمهِ فنهض من ساعتهِ ودفعها فوثب الجلوس كلهم وانقلبت المائدة والصحون والقناديل ثم تعاونوا عليها بالعصي حتى قتلوها

وقد نتج مما ذكر ان امة الدنقة ساقطة جدًّا بالنسبة الى العقائد الدينية ولذلك كثرت عندهم الخرافات وخزعبلات المشعوذين وسيتضح ذلك في الكلام عن الباري في الفصل التالي

الفصل الثالث

امة الباري — عاداتهم واخلاقهم — رقصهم — المستمطرون — ذكر جماعة من المبشرين

من صعد النيل الابيض وبلغ الدرجة السادسة من العرض الشمالي يرى تغيرًا عظيمًا في مناظر الطبيعة واشكالاً جديدة من هيئة البلاد . فهناك ليس مناقع ولا آجام من القصب بل تبدو في السهول الفسيحة قارات كثيرة . والنهر

في تلك السهول التي يشقها يكون تارة عريضاً شديد الجري وتارة يتلوى بتعرجات كثيرة ويحدق بجزر عديدة تقطنها امة يقال لها شيرة . وتلك الجزر كثيرة النباتات والادغال . وهناك مزارع الذرة ومروج الكلإ تسرح فيها الوف من المواشي . والخضرة تغشى الاكام حتى لا يرى منها صخر ولا تراب تقريباً وتسدّ الافق جبال مستديرة من جهة الجنوب وقرى امة الباري متتابعة في مسافة بعيدة اما على حدود الغابات او في الاكام والخصب هناك يزيد المناظر رونقاً والسكنى بهجة ولذة

وتلك الامم اسمى عقولاً من سائر الامم السودانية ولغتهم تؤذن بترفع سلائلهم وتمتاز امة الباري بعنفها في اعمالها وخشونة طباعها فانهم طماعون مشاغبون يعيشون بين القبائل متنقلين من قبيلة الى اخرى ولا يدانيهم التجار الاّ بالسلاح خشية من سطواتهم . ومع كثرة الخصب والخيرات الطبيعية في تلك البلاد كثيرًا ما تتلف اهلها المجاعات وما ذلك الا لقلة الزراعة والتقاعد عن اعمال الحياة وتكرار السرقات والنهب وعيث فرس الماء في الحقول . والداعي الاكبر الاسراف في النهم ياكلون غلال الذرة والسمسم في ثلثة اشهر فتعقب ذلك الفاقة الشديدة وتبلغ اشدها في نيسان وايار فيشردون في البلاد هزالاً من شدة الجوع ويقصدون سفن التجار ومستقراتهم ليلتقطوا ما يتيسر لهم او ينادي مناديهم الطعام يا جياع فيتبادرون كالذئاب ويلتهمون كالحيتان وكثيرون منهم يموتون جوعاً وقد يصل الياس بالامهات الى ان يطرحنَ اولادهنَّ في النهر اذ ليس لهن ما يقتاتون بهِ وتكثر السرقات والقتل

والذي عندهُ بعض بقرات يفصدها ويغتذي بدمها واذا مات حيوان تهافتوا عليهِ كالنسور على الجيف . وعند ذلك تقل ايام المواسم فيقومون باعياد حافلة وتكثر افراحهم ويولمون الولائم ويعقدون كل ليلة مجالس لهو بين رقص وغناء ولعب وشرب وهلمّ جرّا

وعادة الرقص هناك مما يدل على الخفة والطيش فلا يعتبر اولئك النصر

بين اجيال البشر الا كالاولاد في جانب الرجال . قال احد المرسلين عند ذكر هذه العادة انهم يضربون الطول بعد الظهر لكي يعلموا ان الاجتماع في المساء . فاذا كان المساء يسمع ضرب الطبل مستمرًّا على مناسبة حركات الرقص حثًّا لاهل القرى المجاورة ليأتوا وينضموا اليهم . ففي الساعة الثالثة اي بعد ارتفاع القمر ارتفاعًا كافيًا يزدحمون كالجراد من كل ناحية في المكان الذي فيهِ يرقصون

ثم يجتمعون تحت الاشجار الكبيرة وتكون لهم جلبة عظيمة وصياح الفرح والقهقهة والغناء ونحو ذلك مما يستوقف النعام الجافل ومن جملة كلامهم الذي يتكرر « تابو . فارانا . لاري كاتا . تابا بابن » اي أأنت هذا . مساء الخير . هذا يوم الرقص . هل معك تبغ . وبين ذلك احداثهم يتواثبون ويتلاعبون « مثل السعادين » وعند ابتداء الرقص يؤلفون حلقتين احداهما داخلية من النساء والبنات يحملنَ سوق الذرة بصفة رماح . والاخرى خارجية محيطة بالاولى من الرجال والصبيان ومعهم الخوَذ والقسي والرماح . والاعيان منهم يحملون تروسًا من جلد الفيل . وكل منهم يتحلى باثمن ما عندهُ من التحف . والحلية العامة للراقصين مولفة من اجراس صغيرة تعلق من القدم الى ما فوق الركبة لايزال صليلها يوقر الآذان . والنساء يعقدنَ مآزر جديدة والبنات يزيّنَّ اعناقهنَّ واكتافاهن بالخرز ويعلقنَ من الوراء ضفيرة من جلد على شكل ذنب البقرة والرئيس يتخذ شارة المهابة دَهن جسدهِ بدهن شجرة يسمونها قوروليخي ممزوجًا بمغرة ويعلق حمائل صفراء وعلى راسهِ منقار احمر وفي يدهِ ترس من جلد الفيل وعلى منكبيهِ جلد نمر وفي ساقيهِ وذراعيهِ حلقات عديدة من النحاس مجلوّة ثم ياخذون في الرقص ويتخلل ذلك حركات وحشية وصياح كعواء الذئاب

ثم تضرب الطبول ضربًا خاصًّا فيتوقفون عن الرقص والغناء وفي الحال تبرز الابطال للمصارعة والمقاتلة وهم كالاسود الضارية ويهزّون رماحهم

ويتلاحمون ثم تولول النساء ولولة شديدة فتلقى الرماح ويستغرب الكل في الضحك حتى تدوي الارجاء . ثم يعود ضرب الطبول ويتقدم الزعيم ورمحة بيده ويركض ويتبعهُ الراقصون وتدور حلقة النساء الى جهة مخالفة . ثم ياتون بحزم من القش مشتعلة ويطرحونها في وسط حلقة الرجال وياخذون في الرقص الحربي باحتدام حتى كانهم الابالسة في جهنم بحركاتهم ومناظرهم وصياحهم وطنين الاجراس ودوي الطبول يزيد الحال فظاظة ومهابة

وهذه الاعمال والحركات الخشنة التي تظهر في محافل الرقص تظهر ايضًا في سائر المحافل من اعراس ومآتم واعياد ونحو ذلك . وفي الاعراس يولمون ولائم فاخرة حافلة بانواع الاطعمة وكثرة الاشربة . وفي المآتم يخرجون مع الجنازة بعويل يقلق الاقطار وحركات تهلك الابدان وذلك لكي يطردوا الشياطين على زعمهم عن الجنازة ومتى دفن الميت يعلنون ايضًا بعويل شديد جدًّا

ومن عادة الدنقة ان الواحد يسمح لهُ باقتناء نساء على نسبة مقدرتهِ المالية لانهم يشترون نساءهم كاصناف البضاعة كما اشرنا آنفًا . ونكون كل واحدة في كوخ على حدة لكن تكثر بينهنَّ الخصومات والفتن المسببة عن تحاسد الضرائر وتصل الغيرة ببعضهنَّ الى ارتكاب الفظائع . فقد ذكر كوفمان ان امرأَة اشتدت بها الغيرة واحرق فوادها الحسد لكون ضرتها ارفع منها منزلة عند الرجل ففي ذات يوم قبضت على بنت هذه الضرة وقلعت عينيها وبقرت بطنها فاستخرجت قلبها فعلم زوجها بذلك فقتلها صبرًا

والفقر من اعظم اسباب توحشهم وضرائهم فهمهم الاكبر ان يملأُوا بطونهم ولذلك لايهتمون بدين ولا ادب . ويعتقدون وجود قوة خالقة اسمها مون ويقدمون قرابين من لبن وغير اطعمة للافاعي السود زاعمين انهم من سلالتها . لكن لا يعترفون بخلود النفس ولا يانفون من الانتحار

وللمشعوذين والدجالين والرقاة وامثالهم مقام عظيم عند تلك الامة البارية وادعى بعض سحرتهم ان السلاح لا يوثر في جسمهِ . فاجتمع اليهِ الناس من كل

فج وتواردت اليهِ الهدايا كالسيل المتدفق فاتفق يومًا انهُ خطب خطبة طعن فيها بتجار المصريين فترصدوهُ حتى قتلوهُ غدرًا. فاحتاط قومهُ بشلوهِ وصاروا منتظرين رجوعهُ الى الحياة ولم يحققوا موتهُ حتى بلي

ومن اغرب ما يزعمون ان فيهم اشخاصًا يستمطرون السحاب اي يدّعون انهم ينزلون المطر متى شاؤوا. فيحترمون ذلك الشخص اشد الاحترام ويجلّون مقامهُ جدًّا ويأتونهُ بالهدايا من كل نوع وخصوصًا اذا طالت مدة القحط اي احتباس المطر. غير انهُ يكون معرّضًا للويل اذا خاب عملهُ فانهم يجتمعون عليهِ ويشقون بطنهُ زعمًا منهم ان الرياح والغيوم كامنة فيهِ لم يرد اولم يقدر ان يخرجها الا ان يسكنهم بمواعيد تقنعهم او يلقي التهمة على كثرة شرورهم

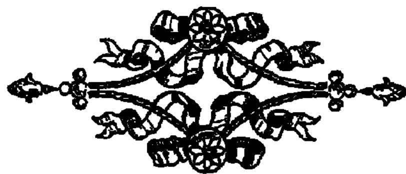
واخص مركز لتجارة العاج عند امة الباري قرية غندوكورو الواقعة على الضفة اليمنى من النهر وفيها كان مقام المبشرين الكاثوليك سنة ١٨٥٠ و١٨٦٠ وكان اول اسير وشهيد منهم انجلوفنكو الايطالي. فانهُ كان منفردًا بين اولئك البرابرة وكان احسنهم طباعًا لا يخلو من تكرار الاساءة اليهِ فلم يضعف عزمهُ بل جعل يبث بشارة الانجيل بغيرة حارة. ثم سافر الى جهة الغرب وصادف على نهر يصب في نهر صوبة قبيلة من السودان يقال لها برّي افاد عنها افادات جديدة وكان يطوف هناك وحدهُ بين المخاطر

واتفق يومًا انهُ اراد الرجوع الى بلاد الباري فاكمن لهُ ملك ليريا خمسمائة رجل ليقتلوهُ لانهُ كان عدوّ ملك الباري. وكان الكمين على شاطئ بحيرة يضطر المبشر ان يمرّ بها ليستقي ويبيت تلك الليلة. فلاجل سعدهِ مرّ واستقى ولم يبت حبًا بالمسير ليلاً لتخفيف ثقلة حرّ النهار. واتى الرجال من مكمنهم الى جهة المكان الذي ظنوا انهُ بات فيهِ فلما وصلوا نفرت الطيور من الاشجار لكثرة جلبتهم فخافوا وقد توهموا ان روح المبشر ثارت في وجههم بجيوش جرارة فاختلطوا مضطربين وتطاعنوا بالرماح وهم لا يعرفون انهم يقاتلون انفسهم فقُتل منهم ستة. فلما رجعوا الى الملك لفقوا لهُ حديثًا هائلاً بشان مقدرة المبشر

حتى آلى ان لا يقصد مرة اخرى ملاحقتة وقد توهمة روحًا او الهًا قديرًا

وبقي هذا المبشر ساعيًا على قدم النجاح بجميل صبرهِ وحسن تدبيرهِ حتى صار مطاعًا نافذ الكلمة في معظم احتدام القوم . وقل القتل بين امة الباري وندرت الفتن . فصارت امة البرّي تعتبرهُ نظير اله . وكان كل صباح يجد على بابهِ طعام نهارهِ وهو لا يدري من ياتي بهِ . وجرت عليهِ امور مسيئة من قبل تجار خرطوم لم تحط من قدرهِ بين البرابرة فاستمر عندهم الى ان عجز عن العمل لكثرة المشقات فمات اسير الانسانية شهيد البشارة . فاسفت عليهِ امة الباري اسفًا شديدًا لا مزيد عليهِ ولبسوا الحداد جميعهم كبارًا وصغارًا رجالًا ونساء . وكان نحو اربعة الآف منهم يزورون قبرهُ وينوحون عليهِ ويذبحون الثيران مدة ثمانية ايام

وبعد ذلك اتت لجنة من المبشرين لكن لم يكن لهم عند الباري شان رفيع الألغايات خاصة اعظمها اشباع بطونهم من خيراتهم فكانت مسالمتهم اياهم رياء وكثيرًا ما كانوا يسرقون من امتعتهم وغلالهم . وكانت اتصالية الباري بتجار خرطوم مانعًا اكبر في سبيل نجاح اللجنة فكانت جماعات منهم ومن جملتهم كثير من الاوروبيين الاردياء ياتون ويفسدون امور المبشرين ويحرّضون الباري على اذيتهم . ومما اوغر الصدور ايضًا ما كان يجري من الاخطار والقتل بسبب تجار العبيد المدعين تجارة العاج فصار الاهالي يكرهون الاجانب كرهًا شديدًا وبذلك تفاقمت الفتن . ومن ثم حبط مسعى المبشرين تكرارًا وقتل منهم عدد غفير في جهات مختلفة



الفصل الرابع

نهر صوبة وبحر الغزال — قبيلة نيام نيام — ذكر غير امور

النهران المذكوران يصبان في النيل الابيض وكثيرًا ما قصد نواحيهما تجار العبيد وصيادو الفيلة. وكان السائح اربود قد دخل نهر صوبة من مصبهِ. فاستقراه رجل مالطي بعد ذلك اسمهُ اندريا دبونو سنة ١٨٥٤ وكان معهُ رفيق اسمهُ فيليب ترانوفا . فوجدا نهرًا عظيم الشان يجري بتعاريج كثيرة في سهول فسيحة كثيرة النبات والفيلة وبقر الوحش والزرافات . ويسمى باسماء مختلفة باختلاف الاقطار

وعلى ضفتيهِ قبائل من سلالة الدنقة والشلوق . وقصد دبونو ورفيقهُ ان يدخلا بلاد البرّي لياخذا العاج فصعدا في فرع من النهر الى مسافة بعيدة ثم توقفا بسبب هبوط الماء الناتج عن القحط فاضطرا ان يقيما عدة اسابيع بين جماعة من السودان خبثاء الطباع لايقدران ان يتقدما ولا يتاخرا وكثيرًا ما اضطرا الى السلاح لدفع شرورهم. غير انهما حاولا اجراء العلاقات بينهما وبين بعض روءساء البلاد مع انهم مطبعون على الطمع والخبث . وقد ذكر ترانوفا في جريدتهِ اخبارًا بشان تلك الاقامة فقال

سافرت في ٥ اذار مع خمسة عشر من العبيد للقاء سلطان الشلوق وكان مقيمًا على مسافة نحو يومين في الداخلية فوصلت في اليوم الثالث . وعلم الملك

بقدومي فارسل اليَّ كمية وافرة من اللبن وغيرهُ من الاطعمة ووعد انهُ ياتي يوم يزورني . فلما كان الغد رايت جمهورًا من السودان في حركة وشغل شاغل من تمهيد الطريق فسالتهم ما الداعي لذلك فقالوا هذه الطريق التي يمرّ بها السلطان . وكانوا يفرشون الطريق بالرمال وروث البقر ويسترون ذلك بالجلود . وكان الناس قاعدين على جانبي الطريق . لانهُ لايسمح لاحد ان يقف بحضرة الملك . ثم اقبل بحاشية قليلة الى ان وصل وجلس على اسكملة على مسافة ثماني خطوات من خيمتي وامر ان آتي واجلس لديهِ فحمل عبيدي طنفسة ووضعوها امامهُ فجلست

وكان شابًا حسن الهيئة والشكل عاري البدن يلبس قلائد من خرز تستطيل بالتدريج الى ساقيهِ الواحدة اطول من الاخرى . وعلى راسهِ قبع مزين بالخرز ومشدود الى عنقهِ بعقد من صغار الصدف وفي راسهِ عثكولة من ريش نعام اسود . وكان جالسًا جلسة خاصة وحولهُ اربعة من خواصهِ كل منهم قابض على قائمة من قوائم الاسكملة وقدامهُ رجلان يضع احدى رجليهِ على فخذ احدهما والاخرى على فخذ الآخر . واثنان اخران واحد عن يسارهِ وواحد عن يمينهِ وظيفتهما ان يتلقيا بايديهما بصاق السلطان كلٌّ بدورهِ فيمرغ بهِ وجههُ كانهُ دهن واذا فات يد احدهما البصاق بصق الملك في وجههِ

وفي اليوم التالي اتى لزيارتي ايضًا وقدم لي ناب فيل وزنها خمسة ارطال فقدمت لهُ كمية من الخرز وقبعًا مزينًا بالخرز وجرسين صغيرين كالجلجل لكنهما ملفوفان بحيث لايراهما فكان يتعجب منهما ويحتار غير عارف من اين ياتي صوتهما الى ان افهمتهُ . وقدمت لهُ ايضًا مرآة صغيرة فلما راى فيها صورتهُ الشنيعة ظن انهُ يرى شخصًا آخر وراءها واذ لم يرَ احدًا الا اذا نظر فيها تعجب وسالني كشف هذا السرّ فافهمتهُ ان كل من نظر فيها لايرى امامهُ غير صورة نفسهِ وما يواجهها مما يقرب بهِ . وقدمت ايضًا قميصًا علقت في صدرهِ خرزًا وجلاجل وبعد ذلك سالتهُ ان يسمح لي بشيءٍ من الاخشاب لابني لي كوخًا . فامتنع عن اجابتي

واما نهر الغزال فهو يأتي من جهة الجنوب الغربي ويدخله التجار جماهير جماهير وقد اقاموا على ضفتيهِ منازل عديدة · وباستقراء البلاد التي يجري فيها عرف السياح احوال امة نيام نيام التي شاعت فيها اقوال غريبة مختلفة · وقد اشرنا اليها في القسم الاول من هذا الكتاب · وكشف السرّ المتعلق بخبر اذنابهم السائح العالم غليوم لجان الفرنسوي

وهذا السائح آخر من استقرى النيل الاعلى كلفة الامبراطور نابوليون الثالث برسالة الى السودان فوصل الى سواكن ومنها مضى الى خرطوم فوجد هناك صعوبات شديدة تعترض دون مسيرهِ في الداخلية لان تجار العبيد كانوا قد اكثروا من العيث بين سرقة ونهب وقتل وتخريب وهلمّ جرًّا حتى اشتد كره السودان لكل اجنبي فكانت التجارة لا تتيسر الا بتجريد عسكر تام · ولذلك كان لجان مرتابًا من جهة التجار ولم يجسر ان يصحب احدًا منهم فجمع على نفقتهِ عشرين رجلاً وركب النهر محمومًا وسار سير المتعسف . فلم يخدمهُ طالع سعد في هذه الرحلة فانهُ بلغ غندوكورو فوجد الفتن فيها على ساق وقدم بسوء معاملة تجار العبيد فامتنع اصحابهُ ان يتقدموا في طريقهم فركب النيل الابيض واجتاز منهُ الى بحر الغزال فاسقراه الى حدّ ينابيعهِ في زورق للبرابرة

غير انهُ لم يستطع تتبع مقاصدهِ لان تجارة العبيد في تلك الاقطار كانت تدعو الى افظع الاعمال وافحش القبائح حتى لم تكن بلدة تخلو من نيران فتن مستمرة والدماء تجري من اهلها انهارًا · والاضطراب لا يقر لهُ قرار ولم يكن احد ضعيف الجانب يامن على نفسهِ . فرجع لجان حزينًا اسفًا لهذه الاضطهادات وقرر عنها تقريرات مستوفية . وقد ذكرنا هذا المعنى في القسم الاول من هذا الكتاب . والله الموفق الى سبيل الرشاد

ملحق

في مجاهل الاقطار الشمالية من الكرة الارضية

الفصل الاول

المنطقة الشمالية

ليست الصعوبات التي تعرض في طرق المتجولين في اقطار افريقية الوسطى المحرقة اعظم من التي تطرأ على الباحثين في بلاد تجلببت من الجمد جلباباً ابدياً وكما تحركت خواطر العلماء الى استقراء مجاهل افريقية نهض بهم حب الاطلاع الى المخاطرة في كشف تلك المجاهل الجليدية · ومعظم رغبتهم في هذا البحث حب الوقوف على احوال الحوادث الطبيعية التي يقوم بها نظام كرة الارض

والاقطار القطبية بالنظر الى هيئتها الجغرافية عبارة عن قبة عظيمة من الجليد تستر سطح الارض في كلٍّ من القطبتين وليست لها تخوم محدودة الاّ بالتقريب بواسطة الدائرة القطبية

ومساحة الاقطار الشمالية تقرب من ١٧٠٠٠٠٠ فرسخ مربع لبس سطحها الماء واليابسة بنسبة مختلفة وغير محدودة ففي شمال برّ اميركا تتخلل البحار جزائر لاتحصى منثورة بلا نظام على ابعاد متباينة من البرّ منفصلة بمضايق ليس بينها نسبة في الطول والقصر والعرض والعمق حتى لايمكن التمييز بينها بالاستقراء

وكل سنة في الشتاء تجمد تلك المضايق البحرية فتصل الجزر بعضها ببعض بجسور من الجليد . فتكون خطاً تخمياً للقطبة الشمالية كدائرة يبلغ معدل قطرها نحو ٣٠٠٠ كيلومتر

وهذا الحاجز العظيم هو الذي حاول الناس خرقهُ بوسائل عديدة منذ اربعمائة سنة والى داخليتهِ توجهت خواطرهم برغبة شديدة كما توجهت للتوغل في اواسط افريقية الكثيرة المخاطر

ولما باشر الناس الاسفار الطويلة وكان ڤاسكو داغاما اول من فتح طريق الهند القديمة فانقلبت هيئة العالم التجارية حدثت حركة عظمى في اوربا وتبادرت امها لسلوك اقصر الطرق الى تلك البلاد المشهورة بافاويهها التي هي محور عظيم لدولاب التجارة . وهذا الجد هو الذي الهم كولمبوس لاكتشاف اميركا ومن ثم حاول الناس اكتشاف معابر الى الجنوب والشمال فاما المجاز الى جهة الجنوب فقد اكتشفهُ ماجلاّن السائح المشهور (راجع الفصل الاول من ملخص السياحات الكبرى) واما المجاز الى الشمال فبقي على شدة العناء مجهولاً الى القرن السابع عشر وكان الاهتمام بكشفهِ منذ القرن الخامس عشر . وكان ابناء القرون الماضية لايهتمون لبلوغ الدرجة التسعين من العرض الشمالي ولم يخطر ببالهم ماينجم عن اكتشاف تلك الاقطار من المنافع العلمية واما ابناء هذا القرن فقد عرفوا انهُ من الضرورة لفائدة عظمى للبشر ان يخاطروا هذه المخاطرة الجليلة وكانت كل امة من امم اوربا تفخر بمن يركب منها اخطار البحار الشمالية

وليست الفائدة من بلوغ القطبة الشمالية تتعلق فقط بالعلم النظري بل لها شان عظيم بالنسبة الى العلم العملي لان عليها يتوقف مستقبل العالم مادياً . ففي القطبة الشمالية مركز الانواء الارضية ومنها مصدرها ومصدر التقلبات الجوية والبحرية التي تتلف في مدة قصيرة نتيجة اعمال طويلة. فهناك نقطة مهاب الرياح وجرّارات البحار التي هي مصادر اسباب الحرّ والبرد

ومن ذكر اصحاب الرحلات يتضح تقدم الناس في المعرفة وشدة اهتمامهم

بتلك الاكتشافات وذلك من الاطلاع على ما كان كل من السياح يكتبهُ بخصوص ما يدخلهُ من تلك الاقطار . فسبستيان كابوت اكتشف بلاداً سميت « الارض الجديدة » وغسبردو كورتريال اكتشف بلاد لبرادور . وجاك كرتيي اكتشف « فرنسا الجديدة » اي كنادة . وبيرين الدانمركي اكتشف المضيق المشهور المسمى باسمهِ ومات هناك . وهيرن اكتشف البحر القطبي وهو يتصيد لحساب شركة هدسون . وماك كنزي اكتشف النهر الوحيد من اميركا الذي يصب في البحار القطبية وسماهُ باسمهِ . وفوربيشر ودافيس وبافين وفوكس وميدلتون وويلوغبي وسكورسبي وبارنتس ورنجل وروس وباري وكثيرون غيرهم بذلوا جهدهم وخاطروا بحياتهم حتى ملأوا الخارطات الشمالية باسماء جديدة وعرفوا عدة اماكن قطبية وحاولوا خرق تلك الحواجز الهائلة التي تحول دون بلوغ القطبة . وكان معظم اهتمامهم اما لمصالح تجارية او للافتخار بالاكتشاف ان يجدوا طريقاً صحيحاً يوصل بين الاتلنتيك والاوقيانوس الجنوبي اي الباسيفيك ولذلك لم يوجهوا كل خواطرهم لبلوغ القطبة فقلّت رحلاتهم اليها الى ان قام فرنكلين وسافر لاستقراء الاقطار القطبية فرحل ثلاث مرات آخرها سنة ١٨٤٥

فكانت آخرة هذا الرجل العظيم محفوفة بالتعاسة وخفي اثرهُ مدة طويلة حتى تحركت همم انكلترا واميركا لاقتفاء اثارهِ والسعي في نجدتهِ اذا كان حيّاً فنجمت عن هذه الرحلات نتائج عظيمة الفائدة كما سنبين . والسبيل الذي سلكهُ فرنكلين بمضيق لنكستر كان مجهولاً من جهة الساحل الشرقي من غرينلندة ولم يتيسر النجاح لعدم انتظام مجاري المياه والجليد في تلك الاقطار ولم يقدر احد اذ ذاك ان يتجاوز الدرجة ٧٨ حيث البلاد المسماة بارض الملك ولم . غير ان الساحل الغربي من غرينلندة هو الذي تيسر فتح سبيل فيهِ فاتح النتائج الحسنة وسيأتي في فصلٍ تالٍ ان مركهام بلغ سنة ١٨٧٦ الدرجة ٨٣ والدقيقة ٢٠ وهي اقصى نقطة شمالية بلغها اوروبي . ومنذ اكثر من ثلاثين سنة كان اهتمام السياح معروفاً في ذلك السبيل اما لبلوغ القطبة واما لتحقيق الظن بوجود بحر

سائل داخل القطبة في وسط الدائرة الجليدية العظيمة

وبالاختصار نقول ان محاولة بلوغ القطبة الشمالية نجحت عن السعي في اكتشاف ممرّ من الشمال الغربي والشمال الشرقي فتحصلت من ذلك معرفة حوادث قطبية تستحق الاعتبار . على ما سياتي

الفصل الثاني

الاستقراءات منذ عهد فرنكلين

قلنا ان الخواطر توجهت الى جهة فرنكلين في رحلته الثالثة ليجتاز النقطة الفاصلة بين الاوقيانوسين وكان معهُ ٣٨ رجلاً فقط ومضت عليهِ سنتان ولم ترد من نحوهِ اخبار فاشتغل بال انكلترا وارسلت ثلث لجن ليفتشوا كل البحار والاجوان والبواغيز التي في ارخبيل اميركا في جوار جزيرة ملفيل . فلم يصادفوا نجاحًا فتحركت الولايات المتحدة وارسلت اسطولاً مولفًا من احدى عشرة سفينة من جملتها سفينة جهزتها امرأة فرنكلين وجعلت قيادتها للبرنس البرت . فاستقروا سنة ١٨٥٠ نواحي بوغاز بارو ونقّبوا باجتهاد حتى يروا دليلاً واحدًا للاهتداء الى السبيل الذي سلكهُ فرنكلين . فحبط المسعى ايضًا . ثم عاد البرنس البرت سنة ١٨٥١ على نفقة امراة فرنكلين وصحب شابًا فرنسويًا خبيرًا اسمهُ بلّو فبذل جهدًا لا يقدَّر وعاد القوم خائبين . فجهزت في السنة التالية سفينة اسمها ايزابل فلم تاتِ بنتيجة ايضًا . ومع ذلك فلم يضعف العزم فاعادت الفرنسوي

بلو سنة ١٨٥٣ فوصل الى جزيرة بتشي وهي النقطة المركزية للبواغيز القطبية وعزم على المسير الى مضيق ولنتون ليسلم الى القبطان بلشر رسائل تلغرافية فدهمهُ عاصف شديد القاه في شق عميق ولم يشعر بهِ رفاقهُ فقضى شهيد العلم والانسانية واسفت عليهِ انكلترا كما اسفت فرنسا

ومع كل ذلك لم تسقط همة الناس في البحث عن فرنكلين فسنة ١٨٥٨ و١٨٥٩ رحل القبطان ماك كلنتوك في ثلاثين سفينة وكانت امراة فرنكلين قد جمعت ما بقي لها واستعانت باهل الخير والسماح حتى جهزت سفينة القبطان المذكور . فمضى وصحبهُ ٢٦ رجلاً من نخبة الملاحين منهم اثنان من احذق الناس واكثرهم خبرة . فاقاموا في بحر بافين مدة الشتاء ومضوا في نيسان سنة ١٨٥٨ الى مضيق لنكستر وبلغوا جزيرة بتشي واقاموا اثرًا لتذكار فرنكلين ومضوا الى مضيق البرنس ريجن ليصرفوا فصل الشتاء

ففي ربيع سنة ١٨٥٩ بلغوا شبه جزيرة بوثيا وهم يسالون الناس عن اهل السواحل فافادهم قوم من الاسكيمو انكسار سفينتين كبيرتين في جهة الشمال الغربي من ارض الملك وليم واروهم اشياء مختلفة من آثار الغرقى . فتقدم ماك كلنتون ورفيقاه لاستقراء سواحل تلك الارض . فلما بلغوا المكان الذي وقف فيهِ جمس روس قبل ذلك العهد بعشرين سنة بنفس هذا السعي وجد هبسون احد رفيقي ماك كلنتون ردهة من الحجارة فنبشها ووجد فيها ما اطار فؤادهُ فرحًا وجد رقعتين فيهما افادات من اصحاب رحلة فرنكلين وضعوها هناك حين مرورهم الى السواحل المأهولة وكانت هذه الردهة اثرًا ينبئ بمرور الذين كانوا يفتشون عليهم . ففي احدى الرقعتين ذكر اقامة فرنكلين في فصل الشتاء في جزيرة بتشي والثانية مورخة في ٢٥ نيسان سنة ١٨٤٨ ومكتوب فيها ما ياتي « توقفت السفينتان عن المسير بسبب الجليد في ١٢ ايلول سنة ١٨٤٦ واطلقتا في ٢٢ نيسان سنة ١٨٤٧ على مسافة خمسة فراسخ من جهة شمالي الشمال الغربي وكان عدد الضباط والركاب ١٠٥ تحت قيادة القبطان كروازيى فاقاموا في هذه

الارض ومات فرنكلين في ١١ حزيران سنة ١٨٤٧ . وعدد الذين ماتوا الى هذا اليوم تسعة ضباط و١٥ نوتيًّا . وغدًا (٢٧ منهُ) نسافر الى نهر باك»

فحينئذٍ تقدم ماك كلنتون ونائبهُ الى الجهة المذكورة فوجدا بسهولة آثار اصحاب الرحلة اي جثثهم منثورة على الارض وزورقًا معدًّا لاجتياز المضيق الفاصل بين تلك الارض وبرّ اميركا . هذا كل ما عرفناه

وسنة ١٨٦٨ و١٨٦٩ كانت رحلة هال الى هناك فاستفاد من الاسكيمو فوائد مفصلة بهذا الشان مدة اشتائهِ في جون بولس. فيعلم مما افاد ان كروازيي كان قد بلغ البر في طوف من جلد اشتراهُ من الاهالي بعد ان ترك الزورق الخشبي لثقلهِ على نوتيتهِ المنهوكين من التعب . فلما نزل الى البرّ اضطر الى فتنة بينهُ وبين الاسكيمو ففاز بالظفر وقد اعيي اصحابهُ فوجدت جثثهم مطروحة على طريقهم والشرذمة التي بقيت منهم حاولت بلوغ حصن بروفيدنس فلم يصل منهم احد والاخير الذي بقي منهم كان الاسكيمو قد امسكوهُ عندهم فمات سنة ١٨٦٤ .

فبذل الهمة في التنقيب عن آثار تلك الرحلة واتى بكشف امور اخرى .

نعم انهم اكتشفوا آثار الرجال لكن لم يعرفوا ملخص الاعمال التي قام بها فرنكلين . فسنة ١٨٧٣ و١٨٧٧ استقصى قبطانان يقال لهما بوتر وباري اخبار تلك النكبة من الاسكيمو فاخبر اثنان منهم يبلغان من العمر من خمسين الى ستين سنة ان الذين بقوا في الحياة من اصحاب فرنكلين اقاموا ردهة اودعوها الاوراق المتعلقة برحلتهم . وبعد ذلك وقف القبطان ادمس في نواحي ارض كوكبرن على افادات تتعلق بموت فرنكلين

ثم ان غردون بنِت مدير جريدة نيويورك هرلْد اراد ان يرسل جماعة للتفتيش على فرنكلين كما ارسل للتفتيش على ليفنستون حين طمست اخبارهُ في مجاهل افريقية لكن لم يأتِ مسعاه بنتيجة . فالحاصل ان كثرة الرحلات المسببة عن نكبة فرنكلين قد اتت العلم بفوائد جمة عظيمة الشان بخصوص القطبة

الشمالية وكان عدد الرحلات ١٩ في مدة ١٢ سنة وكان معظم المناظرة بين انكلترا واميركا لمعرفة طريق القطبة فاكتشفت بذلك اكتشافات جليلة من جملتها القول بوجود بحر سائل ضمن المنطقة الجليدية في نفس القطبة

ومن اعظم الرحلات التي تستحق الذكر ونقوم بمجد صاحبها وتؤيد سموّ همتهِ رحلة القبطان هال فانهُ جهز بنفسهِ التجهيزات اللازمة ومضى في سفينتين يقتحم الاهوال فانكسرت السفينتان ولم يضعف عزمهُ بل ركب زورقًا وطاف بهِ البحار ومكث مدة في بلاد الاسكيمو يتخلق باخلاقهم ويتخذ عاداتهم حتى وقف على اسرار تلك الاقطار وانكشفت لهُ سرائر تلك الامة من سنة ١٨٦٤ الى ١٨٦٩

فلما رجع نال رضى العموم ووهبتهُ الحكومة تعويضًا عن خسائرهِ خمسين الف ريال وسفينة من احسن السفن التجارية . فتجهز لرحلة جديدة وكان بصحبتهِ رجلان من الاسكيمو مع عيالهما كانا سببًا لانقاذ المسافرين من هلاك مبين

غير ان التوفيق لم يساعد هذا الرجل العظيم فانهُ لما بلغ الدرجة ٨٢ من العرض الشمالي مرض ومات فدفنوهُ في الارض التي اكتشفها وسميت باسمهِ . واتفق ايضًا ان السفينة الكبرى صادمت بعنف التيارات قطعة من الجليد كالجبل ثم صدمتها قطعة اخرى ورفعتها الى علو عظيم فسقطت عنها وانفصل منها ١٩ رجلاً بقوا على الجليد والسفينة تجرها التيارات في عرض البحر

وكان من جملة الذين انفصلوا عن السفينة النائب تيسون وهو ذو سكينة وثبات وحذق في التدبير لا يفشل لدى المصائب . فلما يئس من السفينة كان اصحابهُ قد افتكروا ان يتخذوا اقرب واسطة تقيهم من الهلاك غير ان الصعوبات فاقت الحدود فانهم كانوا بعيدين عن البرّ وقطعة الجليد التي كانوا عليها كانت تسير بهم في عرض البحر وكانت كل يوم تصدمها قطع اخرى فتنقطع منها قطعًا كبيرة حتى صار قطرها كيلومترين وكل ما حاول المساكين من وسائط النجاة ذهب سدًى فاقاموا يقاسون شدائد البرد والجليد والرياح والجوع ايضًا

وكان نارس لا يغفل عن جمع كمية وافرة من الزاد في كل ساحل حتى اذا اصيبوا بفقد السفن يجدوا في رجوعهم ما ياكلون . واذ كانت السفن غاية في المتانة تيسر لهم خرق الجليد وبلوغ الدرجة ٨٢ فهناك اعترضهم جبل من الجليد فما استطاعوا ان يجاوزوا الدرجة المذكورة الأّ باربع وعشرين دقيقة . وهي آخر نقطة بلغتها سفينة الى ذلك الوقت . وحينئذٍ اخذوا الاحتياطات اللازمة لقضاء فصل الشتاء حيث لا يرون الشمس مدة طويلة . غير ان نارس اجتهد قبل هجوم الليل القطبي الطويل ان يستقري كثيرًا من تلك الاقطار فارسل مكهام وبرّي وماي في العجلات فبلغوا ٣٦ ً ٣٠ ً ٨٣° وهي آخر نقطة من العرض الشمالي وطئها انسان

وكان الدرنش نائب احدى السفينتين يستقري ايضًا النواحي المجاورة لها فقطع مسافة ٤٠٠ كيلومتر من الدرجة ٦٠ الى الدرجه ٨٧ من الطول الغربي وكان في كل مكان يجد الحاجز الجليدي الدائم الى جهة الشمال . ومع ذلك عرف الساحل وتعرجاته واثبت انهُ يميل ميلاً ظاهرًا الى الجنوب الغربي بعد ان ينعطف في خط منحنٍ الى جهة الشمال

واما السفينة الاخرى فكانت اقرب الى الجنوب من الاولى فمضى منها بولون لاستقراء ساحل غرينلندة . فقضى عذابًا شديدًا هو ورفاقهُ ورجعوا وقد مات منهم اثنان . ووجد ايضًا ضريح القبطان هال سالمًا . وكان معهُ صفيحة امرت انكلترا ان توضع في القبر تذكارًا لهمة ذلك الرجل الغيور الذي كشف الطريق فوضعها ولم يستطع الرجوع الى سفينتهِ وهي تجاههُ . فاقام باصحابهِ مدة حتى انهكتهم الاتعاب . وفي اثناء ذلك فحص ساحل غرينلندة الى مسافة طويلة واثبت وجود جزائر وبرّ ايضًا في جهة الشمال لكن لم يتحقق هل هذا البرّ الذي رآه مستقل او هو قطعة مرتفعة من ارض غرينلندة من جهة الشمال

وذاق اصحاب تلك الرحلة عذاب اطول ليل قطبي امكن العلماء الحكم على مدتهِ واضنتهم الامراض وتخللوا قطع الجليد بشهامة غريبة وتعطلت صحتهم

وكان من جملتهم ايضاً الرجلان من الاسكيمو المذكوران وكان جل اهتمامهما تدبير ما يقتاتون بهِ ولولا حسن تدبيرهما لهلك الجميع جوعاً . وكانت قطعة الجليد التي هم عليها تتناقص كل يوم حتى صار عرضها ٣٥ قدماً فقط فالهمهم الله ان يثبوا منها الى قطعة اخرى ثم ينتقلوا من قطعة الى غيرها حتى يبلغوا البر ولم يكن معهم الاَّ زورق واحد كانوا كلهم متشبثين بهِ فكادت الرياح في ذات يوم تتلف هذا الملجا الوحيد الذي بقي لهم واصبحوا على شفير الهلاك المحقق بعد ان قضوا نحو ٢٠٠ يوم في اشد الاهوال واذا بسفينة لاحت لهم في الافق فجعلوا يلوّحون لها باجتهاد خارق العادة لكن مضى النهار ولم يفوزوا بطائل . ففي الليل اشعلوا ناراً كبيرة من فضلة زيت الحيتان الباقية معهم فلما طلع النهار لم يروا السفينة فسقطوا يأساً

وفيما هم في ضيق الخناق رأوا قلوع سفينة فلوحوا لها فرأت علامتهم واتت فركبوها فترحب بهم اصحابها اشد الترحاب وتعجبوا عجباً لا مزيد عليهِ من بقائهم وهم آمنون من جهة القطة يقذفهم الجليد مدة ٢٠٠ يوم ولم يمت منهم مع ذلك احد لحسن تدبير رئيسهم تيسون وعلو همة الرجلين الاسكيميين

فخبر نجاح جال الذي دفع اوهاماً كثيرة في رسوم الخارتة القطبية اثر في انكلترا تاثيراً شديداً فجهزت لرحلة لم يسبق لها نظير حتى لا يسقط شيء من مجد لقبها وهو ملكة البحار . فقد شحنت سفينتين من اعظم السفن وامتنها بذخيرة تكفي ثلاث سنوات وكان القائد الاول القبطان نارس المشهور بخبرتهِ وكثرة اسفارهِ البحرية وباكتشافهِ بتكرار السبر اموراً كثيرة في قاع البحر افادت العلم اجلّ الفوائد الطبيعية . وكان بسفينتهِ حينئذٍ في الباسيفيك عند خط الاستواء .

فارسلوا اليهِ رسالة تلغرافية يحثونهُ على القدوم لرئاسة الرحلة القطبية. وجُعل مركهام لقيادة احدى السفينتين وستيفنسون لقيادة الاخرى وكان ذلك في حزيران سنة ١٨٧٥ واخذوا معهم كمية من الكلاب لجرّ العجلات وقاسوا اتعاباً شديدة بين قطع الجليد واعترضتهم صعوبات كثيرة في اجتياز مضيق سميث

حتى لم يسلم من داء البحر الا ثمانية من ٥٢ . ففي مركز هذه صعوبة وبين اخطار هذه شدتها وبُعد المناسبة بين تلك العذابات ونتائجها المفيدة عزم نارس على الرجوع في اول فرصة تتيسر له وان كان مامورًا ان يقيم ثلاث شتويات هناك ولذلك كان رجوعهُ مكدرًا للعموم واتهموه انهُ لم يقم بحق الرحلة ولا اتى بالنتائج المنتظرة مع ان الحق انهُ كشف سرًّا عظيمًا وهو قانون الجرَّارات البحرية في القطبة الشمالية وعرف من السواحل مسافة ٧٤٠ كيلومترًا زيادة عما كان يُعرَف قبلهُ . وعرف بتحقيق طبيعة ذلك الحاجز الجليدي الذي لا يستطيع البشر اجتيازه . وعرف ان داخلهُ اي في مركز القطبة ليس بحر سائل بل اوقيانوس من الجَمَد مولف من قطع عظيمة ثابتة منذ قرون عديدة . وان ذلك البحر الجليدي يمتد من ساحل غرينلندة الشمالي الى الساحل الشمالي من اميركا في مسافة طولها اكثر من ٢٢٠٠ كيلومتر . ووجد ايضًا آثار الانسان القديم الذي استوطن تلك الاقطار الى حد الدرجه ٨٢ من العرض وكشف ايضًا في تلك النقطة منجمًا من فحم الحجر من الزمن الثالث الجيولوجي

وبينما كانت انكلترا واميركا تحاولان دخول القطبة من مضيق سميث كانت المانيا تحاول كشف طريق مستقيمة بين غرينلندة وسبتسبرغ بهمة وتدبير الجغرافي المشهور بيترمان وكان بيترمان يثبت القول بوجود بحر سائل في نفس القطبة فارسل سنة ١٨٦٨ السفينة المسماة جرمانيا لكشف هذا السرّ . فاعترضها الجليد وسدَّ طريقها باقرب وقتًا من ذي قبل حتى لم تبلغ ساحل غرينلندة . فعادت الى نواحي سبتسبرغ واخذت تقارير علمية كثيرة الفائدة . ثم رجعت ولم تقم بشيء مما خُصَّت بالذهاب لاجله

واما بيترمان فلم يقنع بهذه الرحلة وظن انهُ ينال قصب السبق في تحقيق قوله فجهز على نفقتهِ لرحلة اخرى سفينتين بخاريتين متينتين جدًّا وكان من جملة الراحلين جماعة من اشهر العلماء . والقائد كولدوي من احذق رؤساء البحر ومضوا الى الساحل الشرقي من غرينلندة لتسهيل الاستقراء . وكانت كل

الظروف موافقة لاتمام هذا العمل العظيم

فلما بلغوا الدرجة ٧٤ من العرض انفصلت احدى السفينتين عن الاخرى باشارة فهمت سوء فهم فالواحدة منها صدمتها قطع الجليد وحطمتها فنجا ركابها على الجليد وساعدهم القدر بحفظ زوارقهم فوصلوا الى بلاد ماهولة جنوبي غرينلندة واما السفينة الاخرى وهي المعول عليها فمكثت قرب ارض الملك وليم وهي القسم الشمالي الشرقي من غرينلندة . (وهي غير جزيرة الملك وليم الواقعة في الدرجة ٦٩ من العرض الشمالي بين ارض فكتوريا وجزيرة بوثيا)

ففي الخريف استقروا بعض اماكن قبل دخول الليل القطبي . وكان الشتاء لاجل التوفيق غير شديد عليهم . وكانوا قد تقدموا في العجلات الى الدرجة ٧٧ ولولا نفاد الزاد لتقدموا اكثر . وكانت المؤنة معهم لسنة واحدة اخرها الصيف القادم عليهم . فرجعوا بفوائد كثيرة عن مسافة طويلة من تلك السواحل وتقريرات لذيذة عن الجليد في غوينلندة واما الحاجز الجليدي الشمالي فعجزوا عن خرقه نظير من تقدمهم

واما هولندة والدانمرك فكان قصارى همها القيام بمصلحتها فقط في الاسفار البحرية ومع ان مسالة القطبة الشمالية اخذت مكانًا في افكارها فقد تركا العناية في حلها للامم الاخرى . فلما حصل النجاح في الرحلات السابقة اخذتهما الغيرة للسعي في معرفة الشمال الاقصى مشاكلة لغيرهما . فمنذ سنة ١٨٧٨ كانتا تسيّران كل سنة لجنة تاتي بفوائد جمة

وسلكت نروج ايضًا هذا المسلك فكان يتيسر لها النجاح بسهولة في هذه المسألة لزيادة قربها الى الشمال . فاهتمت الحكومة بتعليم بحريتها العلوم الجغرافية ورغبتهم في الاقدام على المخاطر الشمالية وهم بالطبع متعودون خوض البحار الجليدية لصيد عجول البحر والحيتان حتى انهم يدخلون اصعب المسالك لتحصيل شيء قليل ولا يبالون ببرد ولا مشقة لصلابة ابدانهم . ولذلك كانت اعمالهم اجلّ فائدة مما سواها في العلوم الجغرافية . ولتنشيط الحكومة اياهم تراهم دائمًا

ياتون بفوائد جديدة من ابعد السواحل واقصى البحار الشمالية . وهم الذين اكتشفوا شبه جزيرة سبنسبرغ وقرروا امكانية الطواف حول زمبلة الجديدة وهم الذين فتحوا الطريق لدخول بحر كارا هذا فضلاً عن اكتشافات اخرى . واسوج ايضاً لم تقصر في اعمالها فانها هي التي كشفت الممر الشمالي الشرقي كما سياتي

فاذا تتبعنا الرحلات التي تكبدها الناس لاكتشاف القطبة الشمالية لانرى ان فوائدها وازت الخسائر الجسيمة التي وقعت على الامم بين مال ورجال ومن ٣٠٠ رحلة معروفة لاستجلاء غوامض القطبة لم يقدر احد ان يبلغ اوسطها بل كان حدهم تلك المنطقة الجليدية المحدقة بها . فان برّي مثلاً فات الدرجة ٨٢ بدقائق قليلة كما مرّ وقد بقي للوصول الى الغاية المطلوبة ٦٠٠ كيلومتر

ولم يزالوا يجدّون في السعي الى الآن . ولا سيما بعد ان قرّر ويبرخت وجوب اقامة مراصد قطبية مولفة من جميع الدول . فلم يأبهوا لمقاله اولاً حتى جددت هذا الراي الولايات المتحدة ونجحت في مسعاها . وعقدت موتمرات دولية فارتأوا اقامة احد عشر مرصدًا في الاقطار القطبية ارسلت اليها لجن من روسيا واسوج ونروج والدانمرك والنمسا وهولندة والولايات المتحدة وانكلترا والمانيا منها عشر لجن في الاقطار الشمالية وواحدة في الجنوبية . ثم دخلت فرنسا في هذا المسعى وارسلت لجنة تقيم في البلاد المسماة ارض النار

ولا بد ان الانسان يصل الى درجة من سموّ الادراك وعلو الهمة وتحصيل الصعب في الاجيال القادمة لا تخطر ببال الاجيال الحاضرة . والبرهان ان المصاعب التي ذللها والاخطار التي اقتحمها والاسرار التي استجلاها والمشاكل التي حلها والمجاهل التي استقراها في هذا العصر فقط اكبر دليل على القوة العظمى التي اودعها فيه رب القوات

الفصل الثالث

المعبر الشمالي الغربي والمعبر الشمالي الشرقي

كان السبب في التفتيش على ممرّ يداربه حول برّ اميركا من جهة الشمال الغربي ان سيّاح القرن الخامس عشر كانوا يعتقدون ان البلاد التي اكتشفها كولمبس معترضة في طريق الهند . فمطامع كابوت البندقي الذي كان مقيمًا في انكلترا وتهيج البرتوغال بعد تاكدها انها تخسر الارباح الناتجة لها من اسفار فاسكوداغاما حرّكت الهمة لهذا المسعى . وبقي الامر غامضًا الى زمن رحلات دافيس سنة ١٥٨٥ و١٥٨٦ و١٥٨٧ وحينئذٍ عرفت احوال البلاد الجديدة التي دخلها اهل الاستقراء . وكان هدسون في رحلاتهِ الاربع التي اهمها سنة ١٦٠٩ اشد اجتهادًا ممن سلف لاكتشاف الطريق المذكورة . وكان بافين مصاحبًا لهُ بصفة ديدبان فتحقق ان المسلك المطلوب بعيد الى جهة الشمال فتقدم الى الاقطار الشمالية واكتشف مضيق لنكستر وكان قصدهُ الوصول الى اليابان فلم يتيسر لهُ

وبعد ثلاثين سنة انشأت انكلترا شركة كبيرة في جون هدسون بسعي رجل فرنسوي اسمهُ دي غروزيلي ارسلهُ لويس الرابع عشر فكان من جملة اعمالها السعي في ايجاد المعبر الشمالي الغربي فعُرف بعد نحو سبعين سنة ان اهتمامها كان في توسيع تجارتها بالفراء وانها لم تهتم بوجود طريق تودي الى الباسيفيك فقصدت انكلترا التعويض عن هذا الاهمال فارسلت ميدلتون لوجود هذا المسلك فلم ينجح وكان مدّعيًا انهُ يعرفهُ

فلجا المجلس العالي الى واسطة اخرى وعين مبلغ ٥٠٠٠٠٠ فرنك جزاء لاول ملاح يقطع جون هدسون ويرجع مارًّا ببوغاز بيرين فاخذ روساء البحرية المشهورون يحاولون ذلك. مثل مور وسميث وكوك وهرن وماك كنزي فعادوا خائبين. ولما كان اول العصر الحالي حالت الحروب الاوروبية دون الاسفار الى جهات القطبة غير ان سكورسبي عزم ان يكون وسيلة الافتخار لبلاده فالحّ لارجاع التركات المتوقفة ففي سنة ١٨١٨ رحلت لجنتان الى الاقطار الشمالية من قبل انكلترا احداها تحت امرة جون روس والنائب باري فجدت في كشف المعبر الشمالي الغربي. والاخرى تحت امرة بوتسان والنائب جون فرنكلين كانت تسعى في وجود المعبر الشمالي الشرقي. فعادتا بلا نتيجة فتكدر باري من خيبته وعاد في سفينتين سنة ١٨١٩ وتقدم الى جزيرة ملميل عند الدرجة ١١٠ من الطول الغربي. ثم رحل رحلتين متتابعتين فعرف بهما عدة مضايق في الارخبيل الشمالي واما المعبر المطلوب فلم يجده

فلما علمت انكلترا ان نجاحها بحرًا لا يتيسر عدلت الى السعي في البر فسنة ١٨٢٠ كلفت جون فرنكلين ان يسير في عجلات على ساحل اميركا. فكانت هذه السياحة شديدة المشقات وعرف بها فرنكلين مسافة ١١٠٠ كيلومتر من الساحل وبعد ثلث سنين عاد الى تلك السواحل بحرًا وكان نائبه باك بفحص انحاءها. ثم ان ديز وسمبسون وراي وبلّن وهوبر انموا الطواف حول كل الساحل الشمالي من اميركا سنة ١٨٥٠

وكان جون روس في اثناء ذلك يحاول تجديد رحلة لكي يفوز بالمبلغ المذكور وحتى لا يكون هذا الفضل لباري وحده وهو حينئذٍ يسعى باجتهاد عظيم. فلم تسمح الدائرة البحرية لروس بمطلوبه فهبت النخوة في راس تاجر غني اسمه فيلكس بوث فجهز لروس سفينة فسافر في الربيع سنة ١٨٢٩ وغاب اربع سنوات وكان لم يبارح قطرًا من الاقطار المظنون وجود المعبر فيها الّا بعد ان يدقق الفحص فيه. وفي تلك الاثناء اكتشف البلاد المسماة ارض الملك وليم

(ملك انكلترا) واكتشف ايضًا مضيق بيل واخر سماه باسمهِ وعدة اصقاع من الساحل كانت قبلهُ مجهولة ثم اكتشف شبه جزيرة بوثيا الكبيرة فجعل اسمها منسوبًا الى بوث الذي امدَّهُ بمالهِ . وفي تلك الارض فوق الدرجة ٧٠ من العرض الشمالي بقليل وقرب الدرجة ١١٠ من الطول الغربي اكتشف القطبة المغنطيسية اي المكان الذي فيهِ تتجه الابرة المغنطسية اتجاهًا عموديًا تامًّا

وكان بارو قد اودع في الافكار وجود مضيق بين الجزائر والصخور التي تحيط بالساحل الشمالي من اميركا غير ان طول الطريق جعل الحاذقين في سلك البحر يقولون بوجود مسلك اخر اقصر مسافة فجُعل بوغاز لنكستر نقطة الارتحال المساعي فيما يلي . فالافادات التي اخذها فرنكلين في رحلتهِ الاخيرة حملتهُ على التوجه جنوبًا بعد اجتياز مضيق بارو . وكان يعرف تلك السواحل معرفة جيدة وساعدتهُ فطنتهُ على صحة المنهج الذي يجب ان ينتهجهُ ورجح انهُ يجد المطلوب في جهة الجنوب فبعد عناء شديد ومشقات لا توصف اتصل الى كشف معبر طالما تمناه هو ومن قبلهُ وكان قد تقدم في سفنهِ الى بوغاز فكتوريا . ولم يقدر ان يصل الى راس بارو المودّي راسًا الى بوغاز بيرين لكنهُ تعزى قبل موتهِ بكونهِ وصل بجدهِ بين اكتشافاتهِ واكتشافات باك وديز وسمبسون برًّا وكان مشاركًا لهم في هذه ايضًا قال بعضهم « ان فرنكلين ورفاقهُ صنعوا بادوات حياتهم او بطرقة موتهم آخر حلقة من سلسلة الاكتشافات حول برّ اميركا » لكن بسبب موت فرنكلين بقي اكتشافهُ ذلك المعبر مجهولاً الى سنة ١٨٥٩ حين كشفهُ ماك كلنتوك كما مرَّ آنفًا

وكان ماك كلور قبل هذا العهد بتسع سنوات (اي سنة ١٨٥٠) قد رحل مع كونسون للطواف حول برّ اميركا مارّين ببوغاز بيرين . ففي الشتاء انفصل ماك كلور عن رفيقهِ وتقدم بسفينتهِ الى جهة الشمال الشرقي يطلب في ذلك الساحل مسلكًا في الجليد القطبي . فاجتاز نهر ماك كنزي ووصل امام ارض بنك فحاول الطواف حولها من جهة الساحل الغربي فاعترضهُ الجليد

فعاد الى نيته من الساحل الشرقي واضطر ان يميل الى جهة اليمين فاكتشف ارضًا سماها البرنس ألبرت واثبت انهُ اخترق مضيقًا فاصلاً بين هذه الارض وارض بنك وهو يسير الى جهة الشمال الشرقي . فتنشط بهذا النجاح وعزم على التقدم بزيادة فمنعهُ الجليد فاقام فصل الشتاء واخذ يسير في المجلات ويدقق البحث في المراكز الى ان تحقق انهُ وصل الى خليج ملفيل الذي دخلهُ باري بسرعة في رحلتهِ الاولى فكان فرحهُ فائق الوصف لحلهِ مشكلاً طالما اتعب الناس العظام غير انهُ كان يجهل كغيره ان اول من اجتاز هذا السبيل فرنكلين الى ان ظهر الامر بعد خمس سنوات . وهكذا تقرر انهُ يوجد معبر واكثر ايضًا من جهة الشمالي الغربي يطاف بواسطتهِ حول برّ اميركا لكن لا تستطيع السفن ان تجتاز تلك المعابر لدوام الجليد

واما مسألة المعبر الشمالي الشرقي فلم يلتفتوا اليها اولاً لاشتغالهم بالاولى . وكان النور منديون الذين اكتشفوا اوربا واتصلوا بسواحل اميركا قبل ان اكتشفها كولمبس بخمس سنين لم يتجاوزوا في ابحاثهم شمالاً البحر الابيض . فاول رحلة كانت غايتها الجهة الشمالية رحلة ويلوغبي وبصحبتهِ رتشردشنسلور . وكان الذي حثّ عليها سنة ١٥٥٣ الديدبان المشهور الانكليزي كابوت - وذلك لكشف طريق من الشمال الشرقي الى بحر الهند وقد ظنوا انهم يصلون اليهِ باخذ الاحتياطات اللازمة لقطع تلك البحار الشمالية الكثيرة الاخطار غير ان مساعيهم حبطت فهلك منهم جماعة تحت رئاسة ويلوغبي من شدة الجوع والبرد بين جبال الجليد واما الباقون فاتصلوا بالجهد الى سواحل روسيا حيث اسسوا مدينة اركنجل . واتصل شنسلور بحذقهِ وحسن تدبيرهِ الى بلاط القيصر الروسي ايفان الرابع واستعطفهُ حتى منحهُ امتيازًا تجاريًا وارسل معهُ وفدًا الى انكلترا فدهمهم نوء شديد عند سكوتلندة كسر السفن وغرق شنسلور ومن ذلك العهد جرت المواصلات التجارية بين روسيا وانكلترا

وسنة ١٥٥٦ و ١٥٦٠ و ١٥٨٠ ارسلت انكلترا عدة لجن فاعترضها الجليد

حتى لم تدخل بحر كارا فضعف عزم الانكليز وقل اهتمامهم بهذا الشان . لكن على عهد الملك جاك الثاني أُرسل وود سنة ١٦٧٦ في سفينتين احداهما مشحونة بضائع للتجارة في الصين واليابان فوصل الى زمبلة الجديدة وانكسرت السفينة التي كان فيها بقطع الجليد . فيئست انكلترا من ثم من امكانية اجتياز البحار الشمالية الى جهة الشرق الى ان قام كوك المشهور برحلاتهِ العظيمة وحاول فض هذا المشكل فسافر من بليموث سنة ١٧٧٦ وبلغ بوغاز بيرين سنة ١٧٧٨ بعد ان تجول بنجاح في اقطار الباسيفيك (راجع رحلتهُ في كتاب ملخص السياحات الكبرى)

وكان الهولنديون يجتهدون جدًّا في وجود معبر من الشمال الشرقي الى الباسيفيك فسنة ١٥٩٤ خرجت اربع سفن تحت امرة الاميرال كورنليس كورنليسون وديدبانهِ الاول بارنتس فمضى كل منهما في جهة وحصلا بعض نتائج حسنة فكورنليسون وصل الى جزيرة فَيْغَتْش وقطع بوغاز كارا ورأى امامهُ بحرًا فسيحًا غير متجمد فعاد على الفور يبشر انهُ وجد المعبر الشمالي الشرقي. واما بارنتس فبلغ سواحل زمبلة الجديدة واستقراها الى راس ناصو وكانت كل قطع الجليد المتكسر في الشمال تاتي من هناك فحاول اختراقها عشرين مرة فخاب ثم انضم الى كورنليسون وعاد معهُ الى هولندة

ففي السنة التالية ارسلت سبع سفن لما ظهر من تباشير النجاح ومعها بضائع برسم الصين وكان بارنتس ايضًا الديدبان الاول فعادت السفن خائبة لان الفصل لم يوافقها فضعف عزم هولندة ووعدت بجائزة سنية لمن يجد المعبر الشمالي الشرقي الى الصين

فسنة ١٥٩٦ ارسلت سفينتان وكان بارنتس الديدبان في هذه الرحلة فقيل انهم اجتازوا الدرجة ٨٠ في تقدمهم شمالاً ليجتازوا زمبلة الجديدة . والمحقق انهم بلغوا ارخبيل سبتسبرغ في فصل رأوا فيهِ من الحيوان المسمى رنى قطعانًا عديدة تسرح في سهول تلك الجزائر . واخيرًا دهمهم الشتاء فرجعوا ومات بارنتس في

الطريق . وقد نجمت من هذه الرحلة نتائج عظيمة جغرافية . فبردت الهمة بعد ذلك من جهة هولندة

وكانت روسيا حينئذٍ على عهد ايفان الرابع تتقدم في الجهات الشمالية مكتسحة سواحل سيبيريا . ولما استولت على كمتشتكا في القرن السابع عشر ارادت استقراء سواحلها الشمالية وبعد مدة قصيرة تقدم بيرين لخدمتها وطاف حول السواحل الشرقية من سيبيريا ومات بعد ان سمى باسمهِ الجزيرة والبحر والمضيق التي اكتشفها فصار ساحل اسيا الشمالي الشرقي معروفاً تقريباً منذ سنة ١٧٣٠ الّا ما بين كوليما ونهر لينا من ساحل سيبيريا واما ما وراء ذلك النهر فبقي مجهولاً الى حد جزيرة فيغتش الّا ان بعض التجار كانوا حذراً من مشقات الاسفار يتقدمون على خط مستقيم الى ان يبلغوا خليج اوبي بواسطة قوارب صغيرة يستخدمونها ايضاً مكان العجلات على البرّ والجليد

وحينئذٍ عزمت الملكة حنة الروسية ان ترسل لجنة لاستقراء كل شواطئ الاوقيانوس المتجمد الشمالي . فجهزت لها تجهيزاً عظيماً حتى اقامت اللجنة في البحث عشر سنوات وعادت بفوائد جمة لم تعرف الا في اواسط هذا القرن

وبينما كانوا يستقرون سواحل بلاد السمويدة اكتشفوا شبه جزيرة تيمور المزدوجة وحاولوا تكراراً الوصول الى ياكوتسك بنهر ينيسي . وبلغ واحد من اكثرهم اقداماً الطرف الاقصى من ذلك البرّ السيبيري فسماهُ بما معناه الراس الشمالي واما الجغرافيون المتاخرون فسموه باسمهِ اي تشيليوسكين اكراماً لذكرهِ

وسنة ١٧٣٦ تمت معرفة كل سواحل اسيا برًّا وبقي مجهولاً منها بحرًا قسم كبير من شبه جزيرة تيمور . وسنة ١٧٦٨ اكتشف روسميو سلوف بوغاز مار متى فكان نقطة مهمة للاسفار . وسنة ١٧٧٠ راى احد التجار السيبيريين واسمه لياكوف كثيراً من الرنى آتية من الشمال فاراد ان يعرف من اي ارض قادمة فمضى يقفو الاثر حتى بلغ على مسافة قصيرة مجموع جزر سميت باسمهِ . ووصل ايضاً الى جبل عظيم من هياكل الحيوان المسمى «مموث» وهو من اكبر الحيوانات

المنقرضة فصاروا يتخذون العاج من تلك العظام وتوفر ربح روسيا من هذه التجارة

ومن سنة ١٨٠٩ الى سنة ١٨١٢ استقرى هودنستريم الرومي مجموع جزر لياكوف المسمى ايضًا سيبيريا الجديدة . ثم فحص رنجل دانجو شواطئ لينا الى الدرجة ١١٥ من الطول الشرقي واستمر رنجل في فحصهِ اربع سنوات اثبت في اثنائها وجود برّ شمالي سمي باسمهِ . وهكذا استطاع هو وهودنستريم وكلت ان يبرهنوا عن ندور وجود الجليد شمالي جزر لياكوف الى ارض رنجل

ومن سنة ١٨٢١ الى ١٨٢٤ قام لوتكي برحلة علمية في بحر زمبلة الجديدة وسنة ١٨٢٧ جدد المباحث هناك العالم باير الروسي غير انهُ لم يتجاوز حد الجليد فعاد وقرر ان بحر كارا مستودع اعظم لكل جليد القطبة وان الاحمق هو الذي يحاول فتح طريق في خلالهِ . فسكن الناس عن المخابرة المذكورة مدة ثلاثين سنة

غير ان جمعية الجغرافية الروسية كانت تعضد هذا المشروع بتسييرها من يكشف الآثار الطبيعية الارضية والجوية في انحاء سيبيريا . فسنة ١٨٤٣ استقرى ميدندرف بعد عناء شديد الجون والبحيرة والنهر التي في شبه جزيرة تيمور

وكانت المسألة تزداد جلاء بزيادة الرحلات وبذل الهم حتى راى تاجر رومي اسمهُ سيدورون سنة ١٨٤٥ لزومًا لارسال سفينتين فلم تتجاوزا شبه جزيرة سمويدة . وكان الصيادون النروجيون ياتون كل سنة بحر كارا فعلم من تقريراتهم ان هذا البحر لا يبقى متجمدًا وان فيهِ معابر الى جهة الشمال .

ومنة ١٨٧٢ دخلت نروج سفينة نمسوية فيها قائدان خبيران وهما باير وويبرخت قاصدان دخول البحر القطبي السائل والتفتيش على المعبر الشمالي الشرقي فوق زمبلة الجديدة فاسر الجليد السفينة هناك وتراكمت قطعهُ وتماسكت جدًّا حتى لم يوثر فيها منشار ولا اقوى منهُ واستمروا في عذاب شديد عدة شهور

ففي ٣٠ نيسان سنة ١٨٧٣ راوا برًّا وكانوا عند الدرجة ٧٩ والدقيقة ٤٣ من العرض الشمالي والدرجة ٥٩ والدقيقة ٣٣ من الطول الشرقي لكن منعهم الجليد عن بلوغ هذا البرّ فسموهُ ارض فرنسوا جوزف ثم تشقق الجليد في فصل

الخريف وانحلّ عن السفينة لكن بقيت تحت الخطر من صدمات قطعهِ فاسرع الركاب الى البرّ المذكور ثم تيسر لهم الرجوع قبل فصل الشتاء. فعرف ان السفينة بلغت الدرجة ٧٩ والدقيقة ٥٨ مجتازة بمضيق كثير الجزائر سمي مضيق اوستريا

ورحلوا رحلة اخرى بلغوا بها ارض زنجي وصعدوا قمة همبولت التي ارتفاعها ١٦٠٠ مترًا واشرفوا منها على انحاء الاوقيانوس المتجمد محاولين وجود مسلك يخلصون بهِ من اسرهم فلم يجدوا فتركوا السفينة ومضوا في العجلات وكثيرًا ما كانوا يغرقون في الثلج الى الركبة ويشتد عطشهم من شدة التعب حتى كانوا يسفُّون الثلج وبقوا شهرين لم يتقدموا اكثر من اربعة كيلومترات واستمروا في هذا العذاب نحو ثلاثة اشهر الى ان وصلوا الى ساحل زمبلة الجديدة

وكانت اكثر الدول عارضة جائزة سنية لمن يكتشف المعبر الشمالي الشرقي ومضت عدة سنوات بدون نتيجة . وكانت نروج ترسل الصيادين الى الاقطار الجليدية وتبالغ في البحث وكذلك اسوج كانت لاتالو جهدًا في الاستقراء . وكان منها رجل اسمهُ نوردنسكيولد قضى عشرين سنة وهو يهتم بهذه المسألة ورحل خمس رحلات من سنة ١٨٥٨ الى ١٨٧٣ واقنع الحكومة ان تلازم البحث في فصل الشتاء ايضًا بتواصل العمل . واستنتج من تقريرات صيادي نروج ان المعبر من البحر الابيض الى نهر لينا ممكن في العمل وان استحال في الفكر . فعزم على رحلة اخرى وساعدهُ تاجر آخر اسوجي . جهز لهُ سفينة على نفقتهِ

فرحل سنة ١٨٧٥ الى ان دخل بحر كارا فوجد قسمًا كبيرًا منهُ غير متجمد وكان الماء عذبًا فعرف انهُ آتٍ من سيول وانهار عظيمة ساحلية فسار في ذلك الماء الى الدرجة ٧٥ والدقيقة ٣٠ . فظهر لهُ اخيرًا ان انحلال الجليد هناك ناتج عن انصباب مياه نهرَيْ ينيسي واوبي الحارة في شهر آب وقد اكتشف فضلاً عن ذلك عدة انواع من الاشجار في اعلى اقطار سيبيريا عند الدرجة ٧٠ . وكانت الاراضي خصبة جدًّا عند الدرجة ٦٤ والغابات نضرة والمروج والمواشي كثيرة وهذا ما حمل الناس على اشد العجب

ثم رجع هذا الرجل العظيم وقد كشف في بضعة اسابيع ما لم يكشف قبلهُ بدهور وفتح طريقًا من اعظم الطرق للتجارة . واجتاز بحر كارا الى مصب نهر ينيسي . وهكذا كشف ذلك المعبر الذي قضت فيهِ الدول سنين كثيرة ولم تكشفهُ . وذلك انهُ سافر في فصل موافق يكون فيهِ الجليد ذائبًا في بحر كارا فتكون الطريق مفتوحة . وكان من قبلهُ لا يراعون هذا السرَّ اللطيف

ثم عزم على رحلة اخرى يطوف بها حول آسيا كلها خارجًا من نروج ومارًّا بالاوقيانوس المتجمد وراجعًا من برزخ السويس فامدهُ صديق لهُ اسمهُ دكسون بمال كثير وساعدهُ ايضًا بعض الملوك حتى كانت الذخيرة كافية لعدة سنين . فخرج في تموز سنة ١٨٧٨ وبلغ راس مار متى ومر بجزيرة ميغتش وهناك لبث مدة يدقق البحث في ما لم تحقق معرفتهُ منتظرًا دخول الشهر الموافق لقطع بحر كارا . وقد عرف ان الذين سبقوهُ لم يكونوا ينتظرون الى اواسط ايلول خوفًا من تعرقلهم بقطع الجليد مع ان الوقت المناسب اواخر ذلك الشهر . وعطف في طريقهِ شمالاً لعلهُ يبلغ القطبة غير ان جبال الجليد منعتهُ كما منعت غيرهُ فعاد جنوبًا وسار مقاربًا للساحل السيبيري ليستقري ويدقق وكشف عدة جزر وضبط مواقع الاقطار الى غير ذلك

غير انهُ تعوَّق بالاستقراء واسرع دخول الفصل البارد فقضى عشرة اشهر منتظرًا حلول الوقت المناسب للوصول الى بوغاز بيرين . فلما كان ثامن عشر تموز سنة ١٨٧٩ سار في طريقهِ وبلغ اليابان في ايلول ولم يفقد من رجالهِ احد ووصل الى بلادهِ بامان وقد دار حول اسيا واوربا معًا

وهكذا كشف المعلم نوردنسكيولد الاسوجي المعبر الشمالي الشرقي من اوربا الى الصين والهند ببوغاز بيرين باجتياز البحار الشمالية في شهر ايلول . وبهذه الواسطة حصلت الاتصاليات التجارية العظمى بين اسيا واوربا واقطار سيبيريا الشمالية بسهولة لا تقدَّر لها قيمة . وكانت فائدتها العظمى لروسيا

خاتمة

في طبيعة القطبتين

اما القطبة الشمالية فلكثرة السياحات فيها وتكرار الاستقراءات الجغرافية والطبيعية قد استفاد العلماء عن احوالها فوائد اختبارية جليلة الشان يطول شرحها لكن مما يجب الالتفات اليهِ هنا ثلاث قضايا مهمة الاولى طول مدة الليل هناك وما يظهر فيهِ من المظاهر الثانية الشفق الشمالي الثالثة كثرة وجود الحيوانات في داخل القطبة . هذا مع قطع النظر عن مجاري القطع الجليدية العظيمة وما يتاتى عنها من مصاعب التجول

فالشمس هناك تختفي عدة اشهر تحت الافق فالذي يمرّ عليهِ فصل الشتاء اول مرة لايملك نفسهُ ان يرتعد ويخفق قلبهُ رعباً من اهوال الطبيعة الظلامية حتى ان الحيوانات تظهر عليها امارات الرعب .

ويختلف طول الليل باختلاف الدرجات فعند درجة ٨٠ تكون مدة الظلام ١٢٧ يوماً لكن يظهر في السماء بعض انوار خفيفة مخضرة وقد تسطع حتى تكسف المجرّة ولا يحلك الظلام الا بوقوع الثلوج وتكاثف الضباب . وفي مدة ذلك الليل تلطف حاستا السمع والنظر فتظهر للعين مناظر غريبة كالسراب والهالات والشموس الكاذبة والاقمار الكاذبة ولا سيما الشفق الشمالي العظيم الذي يعظم ويتكاثر كلما هبت ريح الجنوب وقد عرف ان سبب هذه المناظر تكسر النور البعيد في قطع الثلج السابحة في الفضاء وانعكاسه عنها . واما المسموعات فتتزيد قوتها فاذا سقط حجر مثلاً يخرج لوقعهِ صوت كصوت المدفع

واذا تكلم الانسان يسمع صوتهُ الى مسافة كيلومتر ويفهم كلامهُ

ولذلك يكون اعظم فرح للانسان هناك قرب وقت طلوع الشمس تظهر انوارها اولاً شفقًا يتعاظم بالتدريج ويظهر القمر اولاً ضعيف النور ثم يحمرّ ثم ينجلي ويسطع نورهُ حتى يرى الانسان على مسافة كيلومتر . وبعد خمسين يومًا من اول تباشير الشفق تظهر الشمس ببهائها وتمكث اكثر من اربعة اشهر على الافق فتكون لظهورها اعياد عامة في الاقطار الشمالية ويضرمون نيرانًا عظيمة في ٢٤ حزيران الذي هو اطول ايام الصيف عندهم

وفي ابعد نقطة شمالية اتصل اليها الانسان وجدت آثار الحياة النباتية والحيوانية بكثرة حتى ان الثلج تعيش فيهِ ملايين وربوات من حيوانات صغيرة ومكرسكوبية فصفورية حتى اذا داس الانسان بقعة تظهر على اثر قدميهِ اشعة باهرة متلألئة . وكثيرًا ما شاهد الذين بلغوا الدرجة ٨٢ و٨٣ قطعانًا من الحيوانات تاتي من جهة الجنوب وتدخل داخل المنطقة الجليدية وشاهدوا ايضًا اسرابًا لا تحصى من الطير في اقاصي الافق فاستدلوا على وجود بحر سائل وبرّ حيّ في وسط القطبة . غير ان مسألة البحر السائل لم تثبت على ثقة

واما القطبة الجنوبية فلم يشتغلوا باستقرائها اولاً لان الجليد هناك اكثر بكثير مما في القطبة الشمالية بحيث لا يكون وقت يتيسر فيهِ تحللهُ والعمران ابعد عنها بكثير مما عن الشمالية والآثار الجوية ضعيفة ايضًا بالنسبة الى ما في الشمال . ومع ذلك فقد ارسلت لجن مخصوصة تقيم في الجزائر القريبة لترصد ظواهر الطبيعة وما يتعلق باحوال الاقطار الجنوبية وجغرافية القطبة على قدر الامكان . ولا بد ان ياتوا بفوائد دون الحصول عليها بذل النفوس والاموال

هكذا الهم الله الانسان بقوة داخلية ان يقتحم مخاطر الدنيا ويبحث

بتدقيق عن احوال هذا الوطن الفاني لكي يزداد

تمجيدًا لقدرتهِ وتسبيحًا لجلالهِ

وحكمتهِ